العودة
علي كريم ناشد
رواية
علي كريم ناشد
رواية
دار نشر رقمنة الكتاب العربي• ستوكهولم
العودة
رواية
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٧٩٤) لسنة ٢٠١٨
ISBN: 978-91-89273-33-7
دار نشر رقمنة الكتاب العربي-
Stockholm

العودة

العودة

رواية

علي كريم ناشد

الكتاب: العودة

المؤلف: علي كريم

الطبعة الأولى 2020

ISBN: 978-91-89273-33-7

الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية 40-21-08-10-2020

الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم

السويد، ڤاسترا جوتالند

هاتف: 0046790185518

البريد الإلكتروني: digitizethearabicbook@hotmail.com

جميع الحقوق محفوظة لدى دار رقمنة الكتاب العربي-ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى.

دار نشر رقمنة الكتاب العربي-
Stockholm

دليل المحتويات

الفصل الأول...7

الفصل الثاني...20

الفصل الثالث...34

الفصل الرابع...40

الفصل الخامس...50

الفصل السادس...57

الفصل السابع...68

الفصل الثامن...75

الفصل التاسع...86

الفصل العاشر...98

الفصل الحادي عشر...113

الفصل الأول

فجر آيار من سنة 2003، وصل البروفسور زيد الستيني إلى مطار بلده في مدينة البصرة، بعد غياب دام عشرين سنة، قضاها في بريطانيا بين الكتب والبحوث في المكتبات والكليات. عاد وبداخله فخر بما قدمه من إنجازات علمية، وحنين لبلده وذكرياته، وشوق لأهله وأبنائه وذويه، متسارعة دقات قلبه مضطربة، مرهقاً نفسه بتسارع خطواته، مكثراً لهم أجمل الهدايا، مترقرقه دموعه في عينه حزناً على فراقهم وفرحا بلقائهم، مفتوح العينين المتعبتين، مبتسم الثغر يعيش فرحة حلمَ بها كثيرا، منتظرا من يأتيه، متشوقا لأبنائه، مسرعا لإيجادهم، متلهفا لمعانقتهم، راجيا الله أن يعجل الوقت ويسهل أمر لقائه بابنه وبناته الذين حُرم من رؤيتهم بعد أن طلق أمهم، وهاجر.

لم تسعفه عيناه لرؤيتهم من بعيد، ولم يثقله كبر سنه في سرعة المشي والوصول إليهم، ليس فقط لأنه تواق إليهم بل ولأنه رياضي نشط على الرغم تحدب ظهره واشتعال رأسه ببياض الشيب، مفعم بحب الحياة متفاؤل، لبق اللسان، مهذب التعبير، دقيق الفكر. شوقه وحنينه تغلبا على رزانته المتأصلة فيه وعاطفته المحكومة بقوة شخصيته ورجاحة

عقله، ولعلها هي المرة الأولى التي كاد أن يفقد أعصابه مع موظفي المطار، لا يستطيع الصبر عليهم لينهوا عملهم. ولكن ذكرياته شغلته فراح يعيش بخياله مع أبنائه مقارنا فرحته التي هو بها الآن مع فرحته بهم حين ولدوا.

بينما هو يدفع عربة حقائبه الثقيلة، ويعرض لافتة كتب عليها كنيته (أبو غيث) التي تفرحه وتسعده، وإذا بسكين غادرة طاعنة بيد فتى مرتعشة تخترق ملابسه الشتائية، ثم تُكرر مرة أخرى وثالثة ورابعة، وخامسة في أعلى صدره؛ لتوقعه جريحا نازفا من ظهره وصدره، يرافق قطرات دمه صراخ وصياح عليه وشتم ولعن له. بصعوبة استطاعت الناس القريبة ورجال الأمن تخليصه من الهجوم الشرس لذلك الفتى الغاضب الهائج، المكشر عن أنيابه، الطامح للتشفي، والمتعطش لدم البروفسور، والمبتهج لإيذائه، والمتشوق لقتله، والمتلهف لافتراسه، والتواق للانتقام منه.

كلاهما لم يكف عن الكلام والصياح، فالفتى لم يكف عن الصياح والتهديد الموجة للبروفسور، واللعن والشتم، والتطاول والإساءة حتى بعد أن رأى ضحيته تسقط أرضا؛ لذلك اسكتوه بالقوة؛ وضحيته، البروفسور أيضا لم يكف عن ترديد أسماء أشخاص كان أولها غيث الذي كتبه

على تلك اللافتة البيضاء التي كان يحملها، والتي تلونت بدمه؛ بل قلل ترديد كلمة غيث بعد أن أخذه النزيف، وأفقده وعيه.

من ذلك المطار تحركت سيارتان؛ الأولى سيارة إسعاف مسرعة تتوجه إلى المستشفى، والثانية سيارة شرطة تتوجه إلى مركز الشرطة؛ في السيارة الأولى شيخ مطعون نازف مغمى عليه ولا مرافق معه، وفي السيارة الثانية فتى غاضب متألم متوجع ينزف من كثرة ما لاقاه من ضرب الناس له وبعض رجال الشرطة وكانت معه فتاة عشرينية فرحة مبتهجة بسقوط البروفسور، ومعترضة غاضبة على ألقاء القبض على الشاب.

لقد كان مركزا على من يمر بهم منتظرا إقبال أبنائه عليه، كأنه سكران لا شيء يشغله سواهم، فقطعت السكين تركيزه، وأنهت انتظاره، وفيقته من سكره؛ لتحيله إلى سكرة الإغماء التي تجعله ينتظر خوف أمه عليه، وفزع أبنائه إليه، كله أمل بأنهم لن يتأخروا عليه إن لم يكونوا معه الآن، كأن السكين أرجعته طفلا، والطفل يرجع إلى أحضان أمه عندما يصيبه ألم، وكأنها طبلة الحرب التي تجعل الأبناء يحوطون أباهم خوفا عليه وطاعة له.

أخرجوه من صالة العمليات، فتجمع أهله باكين، وقد شاركهم في البكاء بعض موظفي المستشفى ممن كانوا موجودين. تأثير التخدير

أجبره على قول ما بداخله من حزن، فأطلق صواريخ نفسية، فجرت حزن السامعين، وأثارت عاطفتهم، وحطمت سدود دموعهم، كأنه يعزف موسيقى حزينة تخترق مسامعهم كأنها كلام سلطان واجب السمع والتفاعل معه، تنفذ إلى نفوس الناس وكأنها تعالج جراحاتهم، وحين يسكته الإغماء، ينطقه صوت أمه الشجي الممزوج بالحزن الجنوبي، المعجون بالأصالة الإنسانية وطهر النقاء، والمشبع بروح الحنين وصدق المشاعر، وأوج الحب، فما أن ناحت أمه ما أن تكلم ونطق، كأن ذلك الصوت قيثارة روحه، وعطر نعيمه، ونسمة حياته، ذلك الصوت الشجي يحيه وينعشه ويريحه ويهدئه، وكأنه يشعر بوجوده في تلك الجنة الأبدية التي يتوق لها ويطمح.

ثقلت ضربات الوجع، وقست سهام الحزن، وكثرت طعنات الألم على الموجودين، فكلامه الحزين يعاضد منظر أمه المؤثر إنحناء ظهرها وضعف جسمها وصغر حجمها كأنها هيكل عظمي لطفل صغير، وملبسها الذي يشير إلى ملابس من عاش في أول القرن، وألمه الموجع يعاضد نوح أمه الشجي، ودمه يعاضد دموع أمه، ومشهد جميع أهله يعاضد أحزان الموجودين. وحين يتكلم باللغة الإنجليزية ينفجر من يفهم ويشتد حزن النساء أكثر. دقائق ما هي بدقائق مرت على الجميع،

فجرت العيون دموعا، وأثارت الناس حزنا، وفيضت مشاعرهم، وناغت لنفوسهم، وأرعبتهم خوفا، وأفزعتهم دهشة.

ولى تأثير التخدير، وأفاق من سكرته، وما زال يردد اسم غيث وزينة وهند، يكرر تلك الأسماء، ليجد نفسه في أحضان بلده طفلا في أحضان أمه في وسط أهله محوطا بأناس لا يعرف إلا القليل منهم، ويرى عيونهم محمرة باكية ودموعهم نازلة منهمرة، سائلا أمه عن سبب ذلك، ومجابا بأن الوضع طبيعي ولا شيء سوى أن عينيك لا تزال متأثرتين من التخدير، ثم انك بلا نظارة. ولكنه يشعر ويلحظ أن دموعا تنزل عليه من عيون أمه القريبة منه، فيخبروه بأنها أم، وهذه عادة الأمهات حين يُصاب أبناؤهن بأذى، فيحاول أن يهدئها.

ينعم بوجود أمه، ويشم منها عطر الحب والسعادة، ويزول ألمه بلمستها الحنينة الودودة، وينسى جراحه بقربها منه، فيتذكر أن جنته التي هو بها تحتاج أيضا إلى ولده وابنتيه. صعب عليه إيجادهم بعد أن بحث عنهم في وجوه الموجودين. هو يتوقع التسارع إليه واحتضانه من قبلهم، فهو يعتقد بوجودهم هنا؛ لأنه لا يتوقعهم يتأخرون عن الإقبال إليه، ولكن اليأس حطم صرحه، والشوق دمر اعتقاده؛ لذلك صار يعلو صوته مطالبا الموجودين بإحضار أبنائه، وكأنه فارس ثائر يعلو صوته مطالبا بمنازلة خصمه. فيجيبونه بأنهم أبلغوهم، وسيأتون سريعا.

منذ الصباح وهو يطالب بإحضار أبنائه، وها قد حل الليل، ولا جدوى. انكسر كبرياؤه الذي رفعه عاليا، وصار يطلب من الموجودين متوسلا راجيا. وصل به الأمر أن يقبل يد أحدهم متذللا له باكيا يطلب أبناءه. صار لا يميز بين الطبيب وعامل الخدمة، فهو يتوسل كل الموجودين على حد سواء.

ثم يبدأ بالمطالبة بالخروج من المستشفى والذهاب لأبنائه. يحاول التحرك، ولكن جسمه يخونه، وقواه تغدر به. هو–الآن–طائر مكسور الجناحين ومقيد الرجلين. يبحث في الوجوه عن أمه فلا يجدها، ولكنه يسمع نحيبها وأنينها، ويشم عطرها وأريجها. ينظر في الوجوه لكنه لا يعرف منها أحدا. يُخيل إليه أنه قد مات وهؤلاء هم المعاقبون له. ليس فقط فقده لنظارته حجب نظره عن رؤية عيون الموجودين الباكية بل كذلك تعب عيونه من البكاء وكثرة الدموع وفزع نفسه الواضح في عينيه.

جاءت ساعة الفرح والسرور له، فقد دخل عليه مدير المستشفى ملبيا طلبه في احضار أبنائه، قائلا له إنهم يخافون عليك من قوة فرحة لقائك بأبنائك. ثم أدخلهم عليه. عانقوه وتبادلوا أجمل الكلمات. واستقرت روحه، وعرف قلبه معنى السعادة.

فرح فرحا ما بعده فرح، لم ينم تلك الليلة يكلمهم كثيرا لا يكاد يسكت ويسمع منهم بلا تعب. فقد الشعور بالآخرين وأخذه السكر بعيدا عن

الناس، وقربه من أبنائه، غفل عن أمه، وركز عليهم، وسمع منهم كثيرا، ومسح دموعهم، وأصر على توقف دموعهم التي لا تكاد تقف أبدا، كل منهم يكثر البكاء، وهو يهدئهم، وكله حب لهم وابتسامة وفرح بهم وسعادة. لم ينتبه للوجع وللدم الذي ينزف منه، الدم الذي يتقزز منه، ويوصي ابنه بأن لا يهتم لأمر صحته فالطعنات بسيطة، وأن لا يفكر بالثأر من ذلك الشاب الذي طعنه.

لم ينتبه قط إلى من حوله من الناس، بسبب انشغاله بأبنائه، فهو الوحيد المبتسم الضاحك، المنظر كان يبدو كوردة متفتحة زاهية الألوان وسط المقابر الحزينة الكئيبة المظلمة، أما الجميع فقد تعبوا من الحزن وهلكوا من البكاء، والكثير منهم ذهب بعد أن أعياه التعب، فقد قل عدد الناس. وصار كأنه سكران، أو فاقدا للوعي مع الجميع إلا أبنائه، فهو مركز عليهم. من شدة فرحه بهم، ولهفته بلقائهم، لم ينتبه لغياب أمه إلا بعد حين، فسأل عنها، وأخبروه بأنها متعبة تحتاج إلى الراحة والرقود في فراشها بعض الوقت، ومع ذلك ستأتي إليك غدا.

طال بقاؤه في المستشفى، ولكنه كان سعيدا؛ لوجود أبنائه معه. زاره الكثير من الناس من أقاربه ومن معجبيه من الأوساط العلمية والثقافية. بعدها طلب من ابنه أن يخرجه من المستشفى؛ لأنه يريد أن ينفرد بهم ولا يخسر أوقاته إلا معهم؛ فأخرجه فورا معبرا له عن حبه له وطاعته.

وأخذه لبيت قريب من المستشفى مؤثث استأجره لهم لسكن مؤقت في حي من أحياء البصرة. فعاشوا فيه معا شهرين، ففي الصباح يذهب أبناؤه إلى عملهم في المستشفى، كل أبنائه أطباء زينة وهند وغيث. وخلال فترة غياب أبنائه يزوره أهله وإخوانه وكل من يريد زيارته، وفي المساء يجلسون معه، وفي الليل يخرجون للتنزه، وفي العطل يسافرون إلى بعض الأماكن.

جمعته عودته بهم، فصار يحدثهم كثيرا عن سفره وعما رأى وعما جال في خاطره، وعبر لهم عن أشواقه وآلمه، بكوا جميعا، وضحكوا وفرحوا. وسمعهم كثيرا وعرف مشكلاتهم وآلامهم وآمالهم، وتأسف لما حصل لهم، واعتذر منهم عن طلاقه لأمهم وتركهم، وتودد إليهم، وأعطاهم هداياهم الكثيرة الجميلة التي اختارها لهم بحسب ما يتخيله عنهم وما يرسمه لهم في أحلامه. ولكنهم بكوا كثيرا حين أخرج لهم من حقيبته الشخصية أشياء طفولتهم (إحدى حذاء زينة، وسوار هند، وقميص غيث) وشهادات نجاحهم. استطاع بصعوبة إسكاتهم بعد أن تعب من البكاء معهم.

وعرف أمنياتهم، فزينة تريد اكمال دراستها، وهند تريد أباها معها دائما، وغيث يريد السفر إلى بريطانيا. ووعدهم بتحقيق أمنياتهم وعلى نفقته الخاصة إلا انهم طلبوا منه التريث الآن.

عاش سعادة ما بعدها سعادة وراحة ما بعدها راحة، وشعر بلذة العائلة، وراحة الأمان، وروح المحبة، والاستقرار النفسي؛ وستشعر البقاء الأبدي، والاستمرار النسلي، وهو يرى أكباده تمشي على الأرض، ويرى فيهم بسمة واضحة واستجابة لفرحه وابتسامته التي تنعكس فيهم ولهم، ويرى فيهم دمعة حزن نازلة، ولوعة ألم فاضحة، يظن سببها تركه لهم، وفراقهم له، فيحاول أن يمتص تلك الأحزان، ويذوب تلك الآلام، ويمحو تلك الانكسارات، وينمي ذلك الأمل، وينعش تلك السعادة.

طوال تلك الفترة، وأمه لم تخالطه حين يكون مع أبنائه، ففهم أنها تعطيه فرصة كبيرة كي يكون معهم. وتبادر إلى ذهنه أن طليقته أم أبنائه كانت تعلمهم على كره أبيهم وأجدادهم، وتحرضهم ضدهم، ولعل هذا هو سبب ابتعاد أمه عنه حين يكون معهم. وفهم أن أبناءه لم يتواصلوا مع أعمامهم، وبلا شك أن أعمامهم عجزوا من التواصل مع أبنائه بسبب حقد طليقته وتحريضها المستمر لأبنائه ومنعها لهم. فهو قد ترك العراق في الثمانينيات وهاجر إلى أوربا؛ لأنه لم يستطع فراق أطفاله بعد أن قست عليه طليقته في منعه من رؤيتهم. فصار مجبرا على الابتعاد عنهم لخوفه من السلطة في حال عودته إلى العراق.

في داخله شوق لأخوته الثلاثة الأكبر منه، والاثنين الأصغر منه؛ ولا زال يكن له كل الود والتقدير لما تحمله من عناء تركه العراق من

السلطات. وهم لم يفرطوا بحبهم لهم، دائما يرونه أذكى منه وأكثر هيبة وحضورا ووقار. فكانوا يقدمونه عليهم في كل شيء، وكان يشعرهم بانه أصغر منه ويحاول إضفاء هيبة لهم ووقار. كأنهم جميعا كانوا يتسابقون بالاحترام لبعضهم، وصورة أبيهم شاخصة في جميعهم، وأبوهم كان يمدهم بالحب والحنان كأمهم التي كانت مطيعة صالحة لأبيهم. كان بيتهم بيت سعادة وأفراح. لم يعرف الأحزان إلا بعد أن هاجر وديع مضطرا مجبرا. فمات أبوه حزنا عليه وشوقا له بعد فترة من هجرته، مات ولا يزال قوية البنية صحيح الجسم.

انتبه إلى أن أمه عندما تزوره تكون برفقه فتاة تتودد له دائما، وتتقرب منه كثيرا، قالت له أمه إنها ابنة أخيك عباس واسمها زينب، ونفسه قد ارتاحت لها، وفرحت بها، وكانت كلما تأتي إليه مع جدتها تأتيه بشيء من الحلوى والبسكويت والكاكاو. وهو يستغرب من معرفتها بما يحبه كاستغرابه من شبهها له في طوله ورشاقته، ولون عينيه الواسعين الجميلتين، وشكل أصابع يديه، وخفة دمه وحبه للمرح والابتسامة، وظرافة لسانيهما ولباقة شمائلهما، ظاهرهما يفصح عن أنهما رقيقا المشاعر.

وذات يوما، جاءتا إليه صباحا، سألته أمه بود ولين ورقة وابتسامة وعينين قلقتين : كيف حالك اليوم، يا ولدي؟

- الحمد لله، كما تريني معافى سليم فرح بوجودكِ، ووجود ابنة أخي، زينب.
- هي تحبك كثيرا كثيرا، وهي تغضب إن زرتك ولم أخبرها لترافقني.
- أنا أيضا أحبها وأحب أباها، وأريدها أن تزورني.

زينب : وأنا أحبك يا عمي، وأريد زيارتك دائما كي أطمئن على صحتك. لقد جلبت لك الحلوى والبسكويت وأشياء تحبها.

- كيف عرفتِ، يا عزيزتي؟!
- لأني أحبك فقد عرفتُ.....
- كفي، يا بُنيتي، عن البكاء، فمثلك وردة لا يليق بها البكاء والحزن والدموع. وماذا عنك يا أمي؟ لماذا كل هذا البكاء! أنا أعجب من بكائكم جميعا، هل قال لكم الطبيب عني شيئا يبكيكم؟! هل أنا مصاب بمرض خطير أو أني سأموت قريبا!
- لا، لا والله يا ولدي، لم يقل لنا الطيب شيئا عنك من الذي قلته.
- إذن ماذا، يا أمي؟ اخبريني، فأنا أستغرب من بكائكم الكثير والمستمر، وأريد أن أعرف ما سببه، وما سبب ابتعاد أخوتي عني؟
- يا ولدي، إن الغربة أنستك عاداتنا.

- يا بُنيتي، يا بنت أخي، خبريني ما سبب بكائكم؟
- لا شيء، يا عمي، غير الشوق لك والحب، والحزن على غيابك عنا.
- طيب، فلننهِ الدموع، ونكف عن الحزن، فها أنا معكم، وأنا لا أحب أن أكون سببا لبكائكم.
- يا عمي، سأعمل لك القهوة التي تحبها، فأنت تحبها مع الحلوى.
- فعلا، ولكن كيف عرفتِ!
- عرفتُ ذلك؛ لأني أحبك كثيرا.

خلال كل هذه الفترة لم يكلموه بخصوص ذلك الفتى الذي طعنه، وإن كلمهم عنه، حاولوا إنهاء الموضوع، واشغاله بموضوع آخر. وينتبه هو نفسه ويكف عن موضوع طعنته وطاعنه لخوفه من أن يثأر ابنه من طاعنه، فيصيبه أذى، فهو يعيش صراعا قاسيا متمثلا بخوفه على ابنه من موضوع الثأر، ومن موضوع العار الذي سيلحق به في كونه لم يأخذ بثأر أبيه من طاعنه؛ كونه سكت عن طاعنه. ولكنه يحاول أن يفهم سبب مهاجمة ذلك الشاب له، من هو؟ ولماذا طعنه؟
وصراعا آخرا يتمثل في أنه قد يكون أحد أخوته قد أخذ بثأره من طاعنه، وبذلك يكون قد سبب مشكلة لأخوته؛ وصراعا ثالثا في داخله هو

الوصول إلى توافق بين أخوته وأهله وأمه وأبنائه، فهو يراهم لا يجتمعون، وهذا ما يجعله يخاف على أبنائه؛ كونهم وحيدين ولا أحد عون لهم؛ وصراعا رابعا متمثلا مدح أمهم أمامهم كي يشعروا بشيء من الأمان المفقود، أو أن يرمي عليها كل الأخطاء كي يتخلص من إلقاء اللوم عليه.

كل هذه الصراعات ترهقه، وتدخله في نفق مظلم، وطريق مسدود، ومتاهات مخيفة، ولكن فرحته بأبنائه تهون عليه تلك الصراعات المدمرة له، والفاتكة به، فينشغل عنها، وينتشي بفرحته بعودته لأبنائه زينة وهند وغيث.

الفصل الثاني

عاش مع أبنائه في ذلك البيت، وكأنه يعيش في جنة خلده، وكأنه يتناول نبات الخلود وهو بينهم، عادت له سعادته التي فقدها، لا يعرف بأيهم يبدأ ومع من منهم يطيل الكلام، شوقه لهم كلهم. فلا يزال يخرج قبل أن يأتوا من عملهم؛ ليشتري لهم بعض الحلوى، يعاملهم كأنهم أطفال، محاولا الاستمتاع بطفولتهم، وينتعش ببراءتهم، وينتبه لملبسهم ومأكلهم، ويرتب لهم أماكنهم، ويعتذر لهم عن الماضي، وتركه لهم وطلاقه لأمهم على الرغم من أن ألمه يشتد من أمهم التي عاش معها أسوء أيام حياته حتى بعد أن طلقها، وهي مستمرة بإيذائه بلهفة ومتعة. فحين كانا معا كانت تعترف إثارة المشكلات بينها وبين زوجها زيد قاصدة إيذاءه كأنها عدوة له، وبعد أن طلقها برغبة منها صارت تشحن أولاده عليه حقدا وكرها حتى أفسدتهم تماما.

دائما ما يحاول أجابتهم عن بعض الأسئلة التي ترد على ذهنه هو من دون أن يسألوه، فيخبرهم، أنه كان يشغل نفسه عنهم بكثرة العمل، فكان يقرأ ويبحث من أول النهار إلى آخره تهربا من شوقه لهم وحنينه.

ويؤكد لهم أنه رفع اسمهم عاليا في سماء الرفعة والمجد من خلال ثروته العلمية، وأنه حقق لهم بعض المكاسب المادية التي سيمحنهم إياها.

بينما هو في غاية النشوة وأوج السعادة يعيش مع أبنائه، وإذا برجل يقبل إليه متوسلا، يحيه : السلام عليكم، يا حاج.

- أهلا، وعليكم السلام.
- أرجوك يا حاج، ساعدني فلي حاجة عند دكتور عماد.
- من دكتور عماد؟
- هو الذي كان يمشي معك.
- لا أعرف دكتور عماد، ولم يمشِ معي قط.
- يا حاج، أرجوك ساعدني، ولا تطردني. فهو كان يمشي معك، وكانت معكما امرأة.
- إنه ولدي دكتور غيث زيد، وليس دكتور عماد.
- والله إنه دكتور عماد.
- ماذا جرى لك! انت مخطأ، ولا تعرف طبيبك. طيب مع السلامة.
- يا حاج، أرجوك ساعدني.

تركه وانصرف عنه، وهو يقول فعلا إن الناس تعبت وصارت لا تميز ولا تركز، مسكين هو لا يعرف طبيبه. كان الله في عونهم. ثم لام نفسه في عدم مساعدته لذلك المسكين الذي استنجد به.

كعادته في تعامله معهم، يعاملهم كأطفال، فهو ينتبه لما ينقصهم، أو ما يحبونه، فيشتريه لهم. وذات يوم أخذ قميص ابنه؛ ليشتري له قميصا على نفس المقاس، وإذا به يجد هوية الأحوال المدنية باسم عماد عبد الأمير، وبصورة ابنه، وتثبت بأنه متزوج، واسم زوجته وداد أحمد، فينذعر، ويتصل به مباشرة قائلا بغضب : لقد وجدتُ في قميصك هوية باسم عماد عبد الأمير، ما هذا!

- يا والدي، عندما أعود سأشرح لك الأمر.
- إنها جريمة، من فعل هذا! من سرق صورتك وجعلها صورة له! من هذا المدعو عماد عبد الأمير؟
- أرجوك، يا والدي العزيز، سأشرح لك الأمر فور وصولي إلى البيت.
- لا، أنا قلق عليك، وخائف، فالتزوير خطير، ومشكلات الناس كثيرة ومهلكة.
- طيب، يا أبي، أنا آتٍ إليك وسأفهمك كل شيء.

- حسنا، يا ولدي غيث، اسرع ولا تتأخر؛ لأني قلق جدا عليك. أو لا تسرع يا ولدي، فأنا أخاف عليك من الطريق، كن حذرا، وتعال على مهلك، سأصبر وأمري لله.

لم يتأخر غيث، وصل إلى أبيه، فوجده ينتظره في الشارع، وقلقه فاضح، وغضبه واضح. أخبر والده وهو في الشارع بأن أحد أصدقائه كان يمزح معه حيث كتب فيها أنه متزوج؛ كي تراها من يريد أن يخطبها فترفضه. ولكن أباه غضب عليه، ولامه بشدة. بعدها عبر غيث عن أمنيته في السفر إلى بريطانيا طالبا من أبيه التعجيل في الرجوع إلى بريطانيا؛ كي يرافقه أو يلحقه. فانجلى عن وجه أبيه الغضب والحزن، وعلته ابتسامة، وطمئن غيثا بأنه سيجهز كل شيء خلال أيام فقط فيما يخص الجامعة، أما السكن فبيته في لندن جاهز.

لا يزال الأب مهتما بأبنائه يعاملهم كأطفال، يهتم بهم ويقدم لهم الهدايا ويكثر لهم العطايا، ويفرحهم بمفاجئات سارة. يريد تعويضهم عما فاتهم على الرغم من قصر فترة وجوده معهم شهرين فقط انقضى نصفها، فهو يحاول جاهدا معرفة كل ما يحبونه ويرغبون به؛ ليلبيه لهم بكل سرور.

لم يكن زيد إلا هادئ متاملا، يغمض عينينه قليلا ليريحهما ويغرق في تفكيره في ما يبحثه أو فيما يعيشه من أحلام وذكريات. من كان بقربه يظنه نائما، ومن عرفه علمت أنه يتامل ويفكر. ذات يوم أصابه الذعر، وأفجعه الهلع؛ فقد سمع ابنه غيث يتغزل بابنته زينة، وهي تتودد إليه وتتقرب له، ومن ألفاظهما ما هو فاضح ماجن، ومعها قبلات، وكأنهما عشيقان حميمان.

ما هي إلا صدمة عنيفة أرقدته في الفراش، وأرهقته في التفكير، وأرقته في المنام، فقد حطمت كل آماله، وأخذته إلى عالم آخر مظلم حالك السواد هاتك الفطرة كله رعب، وأحزنته وأسكتته، وجعلته يندم على عودته، وجعلته يعيد حساباته بدقة وتمعن نادما على ما مضى، آسفا على ما رأى، فلم يتوقع أن يرى مثل هكذا أشياء بين الأخ وأخته. الأمر الذي لام نفسه عليه، وبدأ يموت ندما على تركه تربية أطفاله وطلاق أمهم. أخذته الحيرة وهول الصدمة فلم يعرف ماذا يفعل وماذا يقول. يغرق في تفكيره ولأول مرة في حياته لا يعرف الحل ولا يهتدي للعلاج. يتحسر على اختياره غير الموفق في زواجه من أمهم، وعلى طلاقه لها، وعلى عودته لهم؛ ويلوم نفسه على ما تحسر عليه؛ ويلوم طليقته وأبناءه؛ ويطلب للجميع العفو والمغفرة من الله؛ ويدعو لهم بالصلاح والتوفيق.

بعد أن رأى فعل ابنه مع ابنته، تحولت حياته إلى جحيم، كأنه قد أُخرج من الجنة والاستقرار والراحة والسعادة والأمان إلى جحيم الضياع والهلاك والدمار والندم والحزن والنصب، كأنه على قمة بركان ملتهب، يحترق بنار الندم، ومستقبل عائلته يسود كسواد الفحم. يتصارع مع نفسه عن مستقبل أبنائه، فبلا شك أنهم لن يتزوجوا، ولن يكونوا عائلات، فلا أحد يتزوجهم؛ ولن يكونوا أناس أسوياء، فقد خالفوا الفطرة السليمة، وابتعدوا عن الله، وتجاوز حدوده. فبلا شك أن لهم عاقبة سيئة، وخزي وعار وخسارة في الدارين.

تعكر مزاجه كثيرا، وصار قبر يمشي على الأرض، لقد ضاع حلم عودته، وتدمرت أحلامه، وانكسرت نفسه، وانقلبت أفراحه. فردد في نفسه : لا يؤلم الأب القوي المؤمن إلا ألم الأولاد الذين زرع فيهم نفسه وسقاهم بحبه. ثم إن حل هذه الكارثة، لهو أصعب من الكارثة نفسها. فلا يستطيع أن يخبر أحدا بذلك، فليس صحيحا التشهير بأبنائه، ولا يقوى على مناقشتهم، ولا يمكنه تجاهلها واغفالها. ثم ما مستقبلهم؟ فسبب عدم زواجهم إلى الآن قد يكون أن الناس تعرف بأمرهم، أو أنهما يرفضان الزواج؛ لأنهما مرتبطين ببعضهما.

صار يبتعد عن أمه وأخوته كما هم يبتعدون عنه؛ هو يستحي منهم ويخاف من سؤالهم ونقاشهم حول أبنائه ظانا أن هذا هو السبب المباشر

لابتعاد اهله عن أبنائه؛ كونهم أناس معروفين بأخلاقهم وحسن سيرتهم، وهذا ما لا يتوافق مع أبنائه الذين يرتكبون المحرم والمخالف للفطرة. راح يطيل التأمل في وضع المرأة المطلقة وأطفالها؛ فيقول في نفسه : إن الطلاق لهو كسر للمرأة لا يُجبره حتى لو تزوجت برجل آخر، فكيف بمن لم تتزوج! وهي تعيش في مجتمع يعيرها بالطلاق ويسترخصها ويعدها سلعة مستهلكة فاشلة، فالنساء تخاف منها في أن تخطف أزواجها منهن، والرجال تتصيدها لتوقعها في الرذيلة. وما فيها من غيرة من زميلاتها وصديقاتها ومن كل النساء ومن زوجة طليقها نفسها. وهي إما ظالمة لزوجها فتلوم نفسها، أو مظلومة من قبله فتلومه، وفي كلتا الحالتين فستتأثر وتعاني نفسيا، وبذلك فإنها لو تزوجت لعكست ذلك على زوجها الجديد غالبا. ويكثر ألمها وحزنها وقلقها طبعا خلال فترة عدم زواجها وبعد زواجها، فسوف تفكر بأطفالها، وبإيجاد زوج جديد، وبكيفية تقبله الزوج للأطفال وتقبل الأطفال للزوج، وستكون هي مركز صد لعصبية كل من الأطفال والزوج، ولا تنسى همها الأكبر في كسب ود أطفالها لها وبعدهم عن أبيهم وأهله، واقناعها زوجها الجديد في الوقوف معها ضد طليقها وأهله. كل ذلك يثقل المرأة المطلقة المسكينة سواء كانت زوجة صالحة أو طالحة غبية.

أما إذا بقيت بلا زواج فهذه كارثة بالنسبة لها، والكارثة الأكبر هي أنها لو خُدعت من قبل ذكر شيطان ووقعت في شباكه سيستغلها أبشع استغلال. وفي كل ذلك ستخاف من الناس وتبتعد عنهم، وبلا شك ستربي أطفالها على ذلك النهج الذي أُجبرت عليه. وهم سيخافون من الناس ويبتعدون ويحذرون، وهذا البعد يتعاضد مع حاجاتهم الجسدية الفطرية؛ ليوقعهم بأحضان بعض، فيحصل زنى المحارم الذي هو حاصل فعلا مع أبنائي.

وماذا عن غيرة الأطفال سواء كانت أمهم المطلقة تشحنهم بالحقد أم لا، وسواء كان الانكسار واضح عليها أم لا؟ وسواء تزوجت أمهم أم لا؟

بينما هو يمشي في طريقه وهو كئيب حزين مرهق مثقل بالهموم، وإذا برجل دين يمر بالقرب منه، وهو مهتم بملبسه ومظهره ولحيته الطويلة المصبوغة، ويكثر التسبيح بمسبحته السوداء الطويلة، يسلم عليه، فيفزع زيد إليه بما يحزنه. أهلا، يا شيخ، حياك الله وبياك. لو سمحت لي إليك سؤال.

- تفضل، وأنا خادمكم.
- أشكرك. ما رأي الشريعة من التجاذب والتقارب بين الأخ والأخت؟ أو التغزل؟

- أعوذ بالله العلي العظيم، استغفر الله. ما هذا، يا رجل؟! كيف يكون ذلك؟! إنها من الكبائر، ويجب أن يُقتلا.
- يُقتلا إن اتصلا جنسيا أم بمجرد الكلام والغزل؟
- يُقتلا بأسرع وقت ممكن، فهما عار، وهما حشرتانِ ضارتان في المجتمع. لا يمكن أن يعيشا في مجتمعنا الإسلامي. هما خطر عليه.
- ولكن، يا شيخ، أ ليس من الصحيح أن نحقق معهما ونفهم منهما سبب ذلك التقارب، والدافع وراء تلك العلاقة؟ حتى نعالج أصل المشكلة، ونجفف روافدها حتى لا تتكرر مرة أخرى في المجتمع. فليس صحيحا أن نلجأ إلى القتل لكل خطأ، وليس صحيحا أن لا نربي بل نكون جاهزين للمعاقبة فقط. فقد يكون دافع مرتكب الجريمة الحاجة والنقص، وهذا يمكن علاجه؛ وقد يكون دافع مرتكب الجريمة حب الاجرام، وهذا تجب معاقبته.
- ماذا تقول، يا رجل؟! هما منحرفانِ ظالمانِ، تجاوزا على الله، فيجب قتلهما. ثم لماذا تدافع عنهما؟ الأولى بك أن تتبرع بقتلهما تقربا إلى الله تعالى.

- أنا لم أدافع عنهما، ولن أدافع عن مخطأ أبدا، ولكني أقول لماذا لا أحد يعلم ويوجه قبل أن يوبخ ويعاقب؟ لماذا هذا الكرم والجود في العقوبات والبخل واللئم في التربية والتعليم والارشاد والتوجيه؟ ولماذا لا حل لدينا سوى القتل وإراقة الدماء؟ بلا شك أن المعلم العظيم هو من يعدل اعوجاج المنحرف، ويرجعه للحياة مستقيما، ويشحنه ببذرة الصلاح والاستقامة؛ لتنمو في أهله وتثمر؛ وليس معلما من يعدل اعوجاج المنحرف بقتله، وشحن أهله بالحقد والغبن؛ ليكونوا منحرفين مستقبلا.
- كأنك معترض على شرع لله وحكمته؟ ثم اننا–أهل الدين–نوجه الناس ونرشدهم ونصلحهم دائما وأبدا.
- إن الدين مضامين وجواهر وليس سطوحا وظواهرا، ونور وهداية وليس جهلا وقهرا، وإنسانية ونبل وليس تعديا وظلما، لم تأتِ الأديان لقتل الناس بل لإصلاحهم بكلمة صادقة وبفعل حسن. إن الناس لعطشى لمصلح يصلحهم بفعله قبل قوله، وبتفكيره قبل قراره، وبتعليمه قبل معاقبته.
- طيب، في رأيكم هل يوجد قانون خير من قانون الله جل وعلا؟

- لا، لا يوجد، ولكن التطبيق مختلف تماما، حضرتك تريد قتلهم فورا، وأنا أريد النظر في ما دفعهم لذلك. فالزوج عندما يطلق زوجته ويرمي أطفاله، فهو من ساهم في وقع المشكلة؛ فيصبح كل من الأخ وأخته منهارا مكسورا، محتاجا إلى العاطفة والحضن النظيف، والكلمة الصادقة، والحب النقي، ولم يجدان كل ذلك؛ كون الأب تاركا لهم مطلقا لأمهم، وغاب عنهم المعلم والمرشد الاخلاقي والديني. فاضطرا وانقرض عليهما احتضان أحدهما للآخر؛ لتعويض نقص الحب والعاطفة لديهما. أو أنهما عاشا حياة كلها ظلم، فتمردا على قوانين الحياة وأنظمة الناس. أو أنهما شعرا بالظلم، فقررا الانتقام بهكذا أعمال. أو أنهما فقدا الثقة والأمل في كل الناس؛ نتيجة لما رأيا من آلام وصدمات وهجمات من الناس، فقررا العيش وحيدين.
- وهل الطلاق مبرر لفعل الفواحش؟! استغفر ربك، جبار السماوات والأرض، وتب إليه، فإن غضبه شديد.

تفاجأ زيد بالشيخ، وندم على عودته، وهاجمه الصراع كعدو حاقد فاتك، ووحش شرس كاسر، فقال في نفسه : تبا لي ولعودتي، ولبقائي

مع فارغي العقول. وبدأ يفكر بالشيخ ووضعيته؛ كونه قد انصدم بطريقة معالجة الشيخ للأمور القاسية، وأستغرب من ربط حديثه بعضه ببعض وباستشهاداته الخاطئة، وتعجب من لغته التي يرفع بها المجرور وبنصب المرفوع، وانذهل من فكره المغلوط، وخاف من توجهه الدموي، وانزعج من مناقضاته القاتلة، وفزع من نفسيته الشريرة، وارتعب من هجومه الشرس على الرغم من أنه يستخدم ضمير الجمع للمفرد، وهذا الاستخدام يُعبر به عن الاحترام، ويبدو أن الشيخ لا يعرف ذلك، أو أنه اعتاد على الرياء والتناقض، فاستخدامه للضمير فيه احترام، وما بعد الضمير فيه غلظة وبداوة وذبح وقساوة، أو مضمون كلامه وحشي جدا.

لم يستفد كل منهما من الآخر، فالشيخ يرى زيدا كافرا منحرفا منحطا، وزيد يرى الشيخ جاهلا متعصبا متسلطا، سليط اللسان، قليل الفهم، متجمد التفكير، قاسي القلب، معدوم الضمير، غير مدرك لمعنى لا اكراه في الدين، لا يعي من الدين إلا اسمه، ولا يفهم إلا شكله، اهتمامه بلحيته أكثر من اهتمامه بالإنسانية.

بدأت صراعات زيد ترهقه، فبعد لقائه بالشيخ، يبدو أنه ظن أن بعض رجال الدين كلهم خطر على ابنه وابنته، وأدرك أن من الناس من هم عبيد لرجال الدين وليس للدين، وتخيل مصير أبنائه لو انفضح أمرهم، ورمى السبب على نفسه؛ لأنه طلق أمهم. وصار يخاف عليهم

كل الخوف، فهو يتوقع أن رجل الدين قد عرفه، وسيرسل له من يراقبه، وبعدها سيعرفون بأمر ابنه وابنته، وسيقتلونهما لا محال.

خاب ظن زيد برجال الدين من خلال ذلك الذي قابله، وجاءته مصيبة جديدة ومرعبة، فبعد أن نذهل بعلاقة ابنه بابنته الغرامية، وعلى الرغم من أنه لم يجد لها حلا، نزلت عليه الأكبر منها هولا ورعبا، فصار يفكر بعمق متوقعا أن يُقتل كل من ابنه غيث وابنته زينة، وهو أيضا السبب في قتلهما مرة ثانية بعد أن قتلهما بسلاح طلاق أمهما وضياعهما. لا يكاد ينام ولا يهدأ، بل أنه صار كأنه حارس شخصي لأبنائه، لا يبتعد عنهم لا في الليل ولا في النهار؛ خوفا عليهم من القتل، أما قضية علاقتهما الغزلية الغرامية فهي بالمرتبة الثانية من تفكيره.

صار يردد في نفسه : لقد عدت إليهم؛ لأعوضهم قليلا مما فاتهم، ولأريح نفسي من عذاب الضمير، ولكن عودتي ستكون سببا في قتلهم أو اثنين منهم.

أكله الندم على طلاقه لامهم وتركهم، وعلى عودته وما ستكون نتيجتها. فصار يحرسهم في الليل، ويذهب لمكان عملهم، المستشفى الذي يعملون به؛ ليراقب المكان، ويحرسهم ويأتي معهم.

ذات يوم، قصدهم إلى محل عملهم في المستشفى كعادته، ولكنه هذه المرة دخل إلى المستشفى، وما أن وصل إلى ابنته زينة حتى وجد

ازدحاما، فالمرضى كثر، لدرجة أن ابنته الدكتورة لم تستطع رؤيته قط، وإذا به يُصاب بمفاجئة صاعقة أسكتته، فهو يسمع الجميع ينادونها بالدكتورة وداد. وحين رأى اسمها وتوقيعها وختمها وجده وداد أحمد. وحين سأل عنها أخبروه أنها الدكتورة وداد أحمد، المقيمة هنا، جاءت من محافظة بغداد، وهي زوجة الدكتور عماد عبد الأمير، المقيم هنا، الذي جاء من محافظة واسط. وحين سأل عن البنت الثانية التي تعيش معه كابنته، أخبروه أنها الدكتورة ميلاد نور كريم. فأسودت حياته، وتسارعت دقات قلبه، وتباطأت خطوات قدميه، وغابت ابتسامته، وانمحت مخططاته، وانطلقت ظنونه، وتزاحمت شكوكه.

الفصل الثالث

كان يظن أن في عودته لعائلته حياة لهم، وسعادة للجميع، وتعويضا لما فات، وتحسين لما هو آتٍ. ولكنه صار كله حسرة على ما فات (زواجه، اختياره زوجة)، وألم وقلق على ما هو حاضر، ورعب وذعر على ما هو آتٍ. إلى الآن وعودته غير موفقة، ووجوده أتعس من غيابه عليهم وعلى نفسه. كأنه يبحر بسفينة يجهل كل شيء عنها، في بحر غاضب هائج متلاطم الأمواج عدائي التوجه، كثير المفاجئات الغامضة المرعبة، غني الأحداث الموترة المدمرة، في ليلة مظلمة حالكة السواد من شتاء بارد قارس.

احتار في مشكلته، وجهل ما يجرى، وصعب عليه حل العقد المتوالية، وتعسر في أمره، وعجز في تفكيره، وبدأ يسأل نفسه : ما اللغز؟ ومن هؤلاء؟ ولماذا يمثلون دور أبنائي؟ ومن طعنني؟ ولماذا؟ وأين أبنائي؟ وما الغاية؟ ومن سيجيبني عن كل ذلك؟ وكيف سأصبر نفسي؟ وكيف سأتصرف مع من يمثلون عليّ دور أبنائي؟

لم يجد من ينجده سوى أمه، ها قد رجع طفلا باكيا لحضنها الدافئ النافع، ويدها الحنينة الأمينة، وبسمتها البريئة النقية، ونفسها الطاهرة، وروحها المحبة، وأنفاسها العطرة، وكلماتها المريحة. فذهب إلى بيته الذي يقع بالقرب من بيوت إخوته، والذي خصصه سابقا للعيش به مع أمه وأبنائه بعد عودته إليهم، والذي تعيش فيه الآن أمه. بعد أن حياها، عانقته، مرحبة به بالكلم والفعل، مكثرة اللثم والتقبيل، مبتسمة الثغر والعينين، متألمة القلب والدمع. وجه كلامه لها قائلا، بعد أن تفجرت عيناه دموعا : يا أمي، أنا أموت ببطء، أنقذيني.

- يا بني، يا بني..........
- تكلمي أرجوك، لماذا لا تتكلمي؟
- والله، أنا من يموت، يا ولدي......
- اوقفي دموعك أرجوك وأخبريني، أين أولادي؟ ووو

لا حوار بينهما، فكلاهما مثقل بالأحزان، لم تستطع غيوم آلامهما حمل أحزانهما، فنزلت دموعهما كأمطار غزيرة. وأخرسهما الدمع، وأشغلهما حبهما لبعضهما وحرصهما على بعضهما؛ لقد طعنته الحياة برمح مصائبها، فأوقعته صريعا في ساحتها القاسية الدامية، فأسعفته أحضان أمه المنجدة.

لا أحد يقترب منه، فمن رآه من أخوته وأبنائهم هرب منه، كأنه مصاب بمرض معدٍ، فتتبادر إلى ذهنه ابنة أخيه زينب التي كانت تزوره برفقة أمه والتي كانت تجلب له الحلوى والبسكويت، فيسأل عنها ويطلبها.

صار يعلو صوته، ويكثر كلامه، ويزداد انفعاله، ويظهر توتره، حتى جاءته ابنة أخيه، زينب، مصفرة الوجه مهرولة إليه مكسورة عليه مناديه إياه بصوت مرتجف ونغمة حزينة، وما أن وصلته حتى ألقت بنفسها عليه، وهي باكية محمرة العنين مرتعشة اليدين، قائلة له : ها أنا قد جئتُ إليك يا عمي، وحبيبي. مسحت دموعه وهي مبتلة بدموعها، مكحلة الخدين بكحل عينيها الذي جرفته دموعها، متصنعة الابتسامة له، ومتفجرة الحب والود، ولينه الكلام، ومذوبة الغضب. يا بُنيتي، ساعديني أرجوك أرجوك.

- أرجوك، يا عمي، ارحم نفسك، وارحمنا معك، فجدتي متعبة جدا، فلا تقسُ أكثر.
- وأنا سأموت من التعب وأنفجر من ألم.
- أنت أكثر مني ومن جدتي. انظر إلى جدتي.

وحين يرى منظر أمه الذي يرقق قلب عدوها، ومنظر ابنة أخيه الذي يثير الشفقة، يلتفت إليهما ويهتم بهما ويحاول تهدئتهما، ولكنه لا يرى من أمه تحسنا، صارت تبكي بصمت، فبداخلها براكين ألم وحزن ملتهبة تتفجر، فتقذف إلى خارجها تلك الدموع البركانية، وما كانت زينب إلا مشابهة لجدتها لولا أنها تتظاهر بالابتسامة وقول بعض الكلمات، وتتقرب من عمها.

نجحت زينب في تخفيف غضب عمها، بعد أن أقسمت له بأن أبناءه أحياء موجودون في نفس المدينة، وهو ما أكدته أمه وقسمت عليه. ثم سألهما عن صحتهم، فأكدا له أنهم بصحة جيدة، وبعد أن سمع كلاهما وقسمهما استقرت نفسه، وبدأ يتطلع إلى معرفة السبب من وراء عدم مجيء أبنائه إليه.

لا زالت ابنة أخيه، زينب تسعى جاهدة إلى المحافظة على هدوئه، وإراحة أعصابه، وإزالة توتره، وبعاد التعصب عنه. وقد ارتاحت نفسه لها واطمأنت، ولكنه يصر على ايجاد إجابات على أسئلته، وهدأت نار آلامه، ولكنها لازالت مشتعلة، تخيف الجميع وتقلقهم.

يخاطبهما قائلا : ما سبب تمثيل الاشخاص بأنهم أبنائي؟

زينب : لأن أبناءك لم يأتوا إليك. فخفنا عليك من الصدمة، وخصوصا أنك قد أجريت عملية جراحية.

- ولكن لماذا لم يأتوا لاستقبالي، ولا إلى زيارتي؟!
- قد يكون أن أمهم منعتهم من ذلك. فلم يحصلوا على فرصة للمجيء إليك، ولكنهم في النهاية سيأتون إليك عاجلا أم آجلا.
- ولكني مشتاق إليهم كثيرا.
- يا عمي، أرجوك لا تحرجهم، ولا تسبب لهم مشكلات مع أمهم وأهلها.
- طيب، أولا الحمد لله أنهم بخير، وثانيا أنا لن أزعجهم وأتسبب لهم في أي مشكلة.
- وثالثا أصبرْ عليهم، وهم سيأتون إليك.

هي عودة إلى شوقه لهم وصبره على فراقهم. احتضنتِ الأم ولدها وحفيدتها، وهي تقبلهما بلهفة وحب، وتحاول أن تبتسم لهما، وتسعدهما. وصار يريد أن يتكلم عن آلامه ولكنه يخاف على أمه، ويريد أن يرى أبناءه ولكنه يخاف أن يتسبب لهم في مشكلة مع أمهم، ويريد أن يصارح هؤلاء الشباب الثلاثة بحقيقتهم بأنه يعرف أنهم ليسوا أبناءه، ويناقش بالموضوع ويعرف سبب فعلهم ودوافعهم ومن وراءهم، ولكنه لا يريد أن يجرحهم، ولا يريد أن ينهي هذا الحلم الجميل الذي يعيشه. فبقي معهم كما هو، ولم يصارحهم.

عند أمه، يشعر براحة وأمان، وترتاح نفسه وتُسعد. لقد كانت زيارته لأمه زيارة موفقة كل التوفيق، فقد عرف أن أولاده أحياء وبصحة، وعرف أن من معه هم أشخاص غرباء كرماء، أرادوا مساعدته واراحته واسعاده، وعرف أن من مثل دور ابنه وابنته، هما حبيبان وزوجان.

أحب الأطباء الثلاثة الذين مثلوا عليه دور أبنائه كل الحب، فقد مدحهم كثيرا أمام الجميع، وقد عرف الجميع منه أنهم عززوا التفاؤل في نفسه، ودعموا الأمل في داخله، فلا تزال الدنيا بخير والناس تفعله. وكبروا في عينيه، وصاروا النبل نفسه، فعلا استحقوا أن ينالوا مرتبة الشرف الإنسانية. ولام نفسه لسوء ظنه بهم، وخصوصا أنه تخيل لو أن الشيخ أو أحدا غيره سمع كلامه بأنهما أخ وأخت مرتبطان بعلاقة غرامية، فانبرى لهما قاتلا دون سؤال أو استفسار، لكانت كارثة، ولكان هو سبب في إنهائهما، وهما زوجان، ومحسنان له. ردد كثيرا كلمة ويلاه وتحسر.

لاحظ زيد أن كل من الأطباء الثلاثة يكفهر وجهه وتعلوه جدية شديدة وحدة في الشكل وجمود وسكوت حزين وصمت مخيف، وإن تكلموا مع بعضهم تكلموا بشيء من الحدة والحدود والرسمية بلا ود ولا ابتسامة ولا لين ولا رقة. وكل ذلك يزول وينمحي بتدخل زيد بهم ومجاملته لهم كأن تدخل زيد بهم يمسح جمودها ويبهجهم ويريح أنفسهم.

فيضحكوا ويمزحوا وتترقق كلماتهم وأساليبهم، ويستشعرون الأخوة بينهم والمحبة، وتتفاعل مشاعرهم ويتار جمال أنفسهم.

الفصل الرابع

مر شهر ونصف، ولم يرجع الأستاذ إلى بريطانيا بل قرر أن يبقى في بلده لحين إيجاد أبنائه وتكحيل عينيه برؤيتهم اللتين تعيشان العمى كله من دون رؤيتهم، وتعيشان الإبصار كله من أجل رؤيتهم. فلا يستطيع الرجوع إلى بريطانيا دون أن يظفر بغايته، ويحقق حلم حياته الذي هو الوصول إلى أبنائه، وإطفاء شعلة حنينة لهم، وإشباع شوق روحه، وتعويضهم ونفسه عما فاتهم جميعا، وإرضائهم، وتكفيره عما بداخله من شعوره بالتقصير اتجاههم في عدم اختياره زوجه صالحة تكون أما لهم، وإراحة نفسه المتعبة من الغربة والوحدة، وإسعاد نفوسهم الحزينة من ظلال الضياع بلا أب وتفكك الأسرة ومواجهة الحياة.

لا يريد زيد إنهاء تمثيلتهم التي يمثلون فيها أنهم أبناؤه، بل هي عودة لإكمال التمثيلية لإراحة أنفس الجميع مما عانوه في حياتهم من حرمان أسري، فهو مستمر العيش معهم بكل سعادة وفرح وابتسامة ورضا، وهم مستمتعون بالحياة معه، كأنهم كرهوا الحقيقة وتمسكوا بالتمثيلة التي تضفي عليهم جو الأسرة الآمن، وحياة العائلة السعيدة، وروح المودة،

والشعور بالمحبة. فهم فاقدون لأسرهم، وتواقون لحياة العائلة، وهو لا يزال يقابلهم بابتسامته الجميلة البريئة، ويتودد لهم، ويشجعهم على التقدم، ويسندهم، ويقويهم، ويمازحهم ويلاطفهم ويسعدهم ويفرحهم. يشعر بتفاعلهم معه وانسجامهم، وقع كلماته الحنينة الصادقة الودودة واضح الاستجابة عليهم. فعرف أنهم يعانون من فقدان الحنان الأبوي إما لأنهم منقطعون عن أهلهم لانشغالهم بالدراسة وانعزالهم عن الناس، أو لأنهم فاقدون لأسرهم أو لحنية أسرهم. ومن خلالهم فهم ما يمر به أبناؤه، وهم بلا أب، وأمهم معروفة بحقدها وكرهها لأبيهم.

مبكرا يستيقظ قبلهم، فيوقظهم بعد أن يعد لهم وجبة فطورهم بنفسه، ويوفر لهم كل ما يحتاجونه، ويهتم بهم. وذات يوم، دخل ابنه (عماد) بيتهم ومعه أخته (وداد) ومعهما سيدة خمسينية، جميلة متعطرة، غانية وسيمة، رقيقة أنيقة، متودده محبوبة، كثيرة المزاح، دائمة الابتسامة، مهذبة الأسلوب، رقيقة الكلام؛ الأنوثة طبعها، والجاذبية صفتها، والسحر سلاحها، واللمعان لونها، والبريق علامتها، والتفاعل مع الناس والأحداث ديدنها، تعشقها النفس الإنسانية، ولا تملها، وتفرح بها، وتفتقد غيابها.

وبعد أن حيوه بلفظ رقيق تهلل وجهه وابتهج وأقبل عليهم مرحبا، قدما له السيدة، قال غيث : يا أبي، إن هذه السيدة ميس، هي من معارفنا، وأنا أتمنى أن أكون صهرا لها، فأنا أحب ابنتها كثيرا، وأريد زواجها.

- أهلا بها، وإن شاء الله سنتشرف بها وببنتها. ولكن يا بني، كأنها هي العروس وليست ابنتها، فهي جميلة وأنيقة.
- شكرا لحضرتك، يا أستاذ، على هذه المجاملة الجميلة.
- هي ليست مجاملة، فحضرتك فعلا جميلة وأنيقة.
- ماذا، يا أبي، كأنك عشقتها، وتريد التغزل بها. وأنا لن أسمح لك بالاقتراب منها والتغزل بها أبدا، فهي أم زوجتي.
- وأنا لن أسمح لك بالزواج من ابنتها.

يضحك الجميع، وتبقى السيدة ميس معهم في البيت خلال فترة عطلتهم التي هي أربعة أيام، وخلال هذه الفترة، تقارب الطرفان وتجاذبا وتبادلا الحديث وضحكا معا وبكيا، وصارت ميس تساعده في إعداد الفطور. وبتلك السيدة صاروا كأنهم عائلة مكتملة، عاشوا حلما على أرض الواقع، وواقعا على أرض الخيال، ونعيما مفقودا، وفقدا مؤقتا، كل منهم راية مرفرفة تعلوها ابتسامة، ملطخة بدم جراحاتهم النازفة، مبللة بأمطار غيوم أحزانهم الدائمة الدمع، مرصعة بشظايا انفجاراتهم النفسية وانكساراتهم العاطفية. هي عودة لهم لجو العائلة السعيد الذي يتوقون له بعد أن حرموا منه.

خلال فترة تواجد ميس معهم، خرجوا إلى الأماكن الترفيهية، وتجولوا، وضحكوا وفرحوا. وفي خروجهم، كان زيد وميس يمشيان معا، وغيث والبنتان يمشون معا. واضح جدا أنهم عائلة من العوائل الراقية علميا وثقافيا وماديا.

وحين عودتهم في إحدى الليالي من نزهتهم، مرت غيمة حزن مظلمة على قلب زيد كعادتها بعد أن أكتشف أنه لم يجد أبناءه بعد، فأبعدت النوم عنه، بعدها جلس في شرفة البيت، وإذا بميس، تطل عليه قائلة : لماذا أنت هنا؟ أ لم تنم؟!

- أهلا بك. والله لم أستطع النوم. لقد رماني الحزن بسهامه، فأرقني.
- أرجوك تدرع بصبرك، ودافع عن نفسك بقوة إرادتك، وانتصر بأملك وتفاؤلك.
- السهام دمرت كل دروعي، فهي كثيرة وقوية، وقساوة الهجوم عليّ أضعفتْ قوة إرادتي، وطوال فترات بلائي ودوامها محت أملي ونمت يأسي.
- كفاك كفاك أرجوكَ، ما هذه الدموع؟! ماذا حدث لك، أيها الرجل الرومانسي! غيث يخاف عليّ منك، وأنت تريني دموعك، أي

انكسار هذا! وأي قوة قوتك! وأي رجل يُخاف عليّ منه! وأين مزاحك وابتساماتك وسعادتك! أم أنك تمنحها فقط لأبنائك؟

- هل تحفظين السر؟
- نعم، قل ولك مني وعد حرة.
- من أنتِ، يا سيدة؟
- من أنا! أي سؤال هذا! وأين السر الذي تريد أن تسرني به؟
- اخبريني من أنت، فأنا أعرف أنك تعرفين كل شيء، وأنا منهار ومنكسر من الداخل، ولكني أحاول أن لا أكسر عزيمة هؤلاء الشباب الثلاثة في فعل الخير، اضيفي إلى ذلك أنني شعرت بهم كأنهم أبنائي. وها أنا أعيش معهم حلما، لم أستطع أن أعيشه على أرض الواقع. فأتمنى أن تساعديني وبسرية.
- أساعدك بماذا؟
- ساعديني بإخباري من هؤلاء الشباب الثلاثة، ومن أنت، ولماذا تفعلون كل ذلك معي؟ ساعديني بإراحة نفسك من دموعك، ولا تديري وجهك مني، فلن تستطيعي إخفاء دموعك، ولن تستطيعي ستر نغمة صوتك الحزين.

- عن إذنك.
- لا، لن أسمح لك بالذهاب والهروب مني. فأرجوك لا تساهمي بإزعاج الشباب الثلاثة ولا تكسريهم. وأنا أعدك بأنني سأحفظ السر.
- ما دمت تعرف أنهم ليسوا أبناءك، فلماذا تسألني!
- وما دمتِ متأكدة من أنني أعرف أنهم ليسوا أبنائي، فلماذا لا تساهمي في إراحة نفسي المتعبة! أنا أب، يا سيدة، يذبحني شعور الأبوة نحو الأبناء، وأنا مغترب، تحرقني نار الغربة، وأنا باحث عشت وأعيش مع الكتب، تمزقني الوحدة، وأنا.......
- كفاك، لقد عذبتني كثيرا، ارحني بسكوتك، وارحمني من بكائك. ما عدتُ أقوى. اسمع، يا أستاذ، كلهم ليسوا أبناءك كما تعلم. فغيث هو عماد زوج ابنتي وداد التي هي الآن تمثل دور بنتك زينة. وهما طبيبان مقيمان يسكنان محافظتك. وقد ادعيا أنهما أبناؤك؛ لأنهما وجداك منكسرا على أبنائك، تريد رؤيتهم. لقد ألمهم كثيرا منظرك، وأنت تكثر من ندائهم بالمجيء إليك، وكانت الناس مجتمعة عليك باكية على أبوتك الفاضحة، وعلى حبك المتفجر، وذكرت أشياء كثيرة تبكي عدوك، حتى كلامك في الإنجليزية كان مبكيا لمن سمعه

وفهمه، وحين فقت من التخدير، بدأت تلح على إحضارهم لك، فتبرع هؤلاء الثلاثة بأن يمثلوا عليك دور أبنائك؛ ليريحوا نفسك ويخففوا عنك هول مصيبتك. وهم عارفون أنك سترجع إلى بريطانيا قريبا.

- ولكن أين أبنائي؟! ولماذا لم يحضروا إلي؟
- ارحمني وارحم نفسك، وكفاك كلاما وأسئلة ودعنا نذهب إلى النوم.
- أين أبنائي، يا ست؟
- ميس. نعم، اسمي ميس كما تعرف.
- أين أبنائي، يا ست ميس؟
- لا أعرف، كل الذي أعرفه قلته لك.
- أي عذاب أنا فيه! أي صبر يمكن أن يسعفني! أي..
- أرجوك أرجوك...

انفجر باكيا متألما حزينا، فانفجرت إنسانيتها ماسحة دموعه أخذته في أحضانها محاولة تهدئته. وفي الصباح، كعادته استيقظ مبكرا نشيطا مبتسما متفائلا، معدا لهم فطورهم، وهذا ما استغربته ميس؛ كونه إنهار

في الليل وبكى كثيرا وحزن حزنا شديدا، وها هو الآن مبتسما كأنه شخص آخر.

وفي ذلك الصباح، تناولوا فطورهم جميعا، وذهبوا ثلاثتهم إلى عملهم، بينما كانت ميس تستعد إلى السفر لرجوعها إلى بيتها في بغداد، ولكنها تأخرت أكثر من ثلاث ساعات معه في البيت. كل منهما طرق الإعجاب باب قلبه، وجذبه الود، وأغرته روحية الآخر. تقاربا كثيرا واندمجا، ووحدهما الحب، وجمعهما شعور جميل، وتحولا إلى عاشقين مغرمين. يبكيان على حزن بعضهما ويفرحان ببعضهما. وهذا ما جعلها تؤجل سفرها مدعية أنها تشعر بالتعب. قضيا صباح عسل، من يوم جميل مريح، وقد تخلصا من بعض أحزانهما، وقصدا الفرح والسرور والهروب من جحيم الحياة. عاد كل منهما إلى الحياة الزوجية، فقد عاشا ذلك الصباح من ذلك اليوم حياة زوجية، مارسا فيها ما يمارسه الزوجان.

وما أن جاء أول الليل حتى جلسا في تلك الشرفة، وجاءت أحاديث أحزانهما، وتكاشفا الأسرار، وسند أحدهما الآخر، فهي تروي له حياتها، قائلة : إني كنت امرأة جميلة محبة لزوجي ومطيعة؛ وهو كان زوج مثاليا، ومحبا لي ومتغزلا بي، وخير سند لي، رقيقا معي وكريما، مهتما بي ومعجبا، وفيا لي ومخلصا، ولكن الموت خطفه مني.

- الله يرحمه برحمته. المهم أنك قمت بواجبك أفضل قيام، وأوصلتِ أولادك إلى مكانة عالية، وخلقت منهم نجاحات، وجعلتهم نافعين في المجتمع.
- ولكني عانيت كثيرا كثيرا بعد موته لم يفكر بي أحد ولا بأولادي..
- اوقفي دموعك، وانهِ حزنك، وارفعي رأسك عاليا، فقد نلت المجد، واستحقيت الثناء، وقطفت ثمار النجاح، وتتوجت بتاج الرفعة، وتعطرت بعطر الفخر.
- لقد تعبت كثيرا من دونه. لم يشعر بي أحد ولا بأولادي، فهم قد عانوا اليتم من دون والدهم على الرغم من كبر أعمارهم، وزواجهم وابتعادهم عني، وتركهم لي وحيدة.
- مثلك مثال للمرأة الفاضلة، والزوجة الصالحة، التي صبرت فنالت. وأنا لا أحب أن أراك باكية حزينة. هذا هو منظر الوردة الباكية، والملاك الحزين.

وتلقي بنفسها عليه، وهي باكية ثائرة فيستقبلها في أحضانه، وهو جالس على كرسي، مبتسما في وجهها، ماسحا دموعها ممتصا لغضبها، وإذا ببنتها قد دخلت عليهما، وتفاجأت بما رأت. وانصدمت من قوله لها

إنك أوصلتِ أبناءك إلى المجد وها هي وداد مثال على ما أقول. فهمت وداد وتأكدت من أن الأستاذ قد عرف الحقيقة، ومن أن أمها قد أخبرته بما يخصه وما يخصها، ومن أنهما قد عشقا بعضهما وارتبطا.

انذهلت وداد وانصدمت، فغفلت عن العالم، ووجهت نظرها–وعيناها جاريتان–إليهما وهما متعانقان ينظران إليها بأعين محمرة، فانطلقت إليه معانقة بعد أن أشار لها بيده، وناداها بابتسامته المحبة لها والبريئة والصادقة.

تعانقوا جميعا وكأنهم يريدون أن يمتزجوا مع بعضهم، كل منهم يريد أن ينصهر في الآخر، وكل منهم يتفجر حبا للآخر، وكل منهم يعاني الفراق، ويتألم من البعد، ويتوق لجو العائلة العطر، ونسيم الحب المنعش، ورح التعاون المشترك، وحب التضحية للآخر والفداء، كلهم تجاذبوا تجاذب المغناطيس لبعضه، كلهم غفوا بأحضان بعضهم؛ وصار يسكتهما، وهو متفجر لها حب الزوج المثالي، وللأخرى حب الأب المتفاني؛ وصارت ميس تستجيب له وتتفجر حب الزوجة الصالحة الملائكية؛ وصارت وداد ذائبة في توقها لجناحي الأبوين اللتين حرمت منهما لسنوات.

الفصل الخامس

بعد أن تصارح الأستاذ وميس ووداد (زينة)، انقسموا على قسمين قسم يعرف بالتمثيلية ويعيها، وقسم آخر الذي هو غيث (عماد) والبنت الثانية هند (ميلاد) لا يعرفان بأن الأستاذ وميس ووداد يعرفون بحقيقتهم وأسمائهم. فكل من وداد والأستاذ يتصارعان مع نفسيهما على موضوع مفاتحة الاثنين بالحقيقة؛ لأنهما عاشا الحياة كأنها حلم، ولا يريدان أن ينتهي هذا الحلم الجميل، أو على الأقل يخافان من القادم.

تبدأ وداد بالتقرب أكثر إلى الأستاذ زيد، بعد أن رأت منه النبل والإنسانية والأبوة، فلم يتغير عليها بعد أن عرف أنها ليست ابنته، بل إنها أعجبت به أكثر حين رأت شخصيته المحترمة، وحين رأته يتفانى من أجل أن يسقي أبناءه ماء السعادة، ومالت له أكثر حين فهمت أن هناك علاقة بينه وبين أمها. فصارت تعده فعلا أبا لها. وبعد أن عرفت

العلاقة بينه وبين أمها، صارت أمها تطردها مازحة معها؛ لتكون مع الأستاذ، وهو يقربها قائلا هي ابنتي الغالية التي ترتاح لها نفسي.

إن ما تراه وداد من ود إنساني وحب أبوي وروح كريمة يجعل دموعها متفجرة، فبُعد أبيها عنها أفجعها، وشوقها للحياة الأسرية أرهقها، والهم بزيد والتفكير بمشكلته اشغلها، عكست كل حبها لأبيها وشوقها له على زيد، فصارت تهم بالقول لزوجها وتمنع نفسها، ثم تهم بإخبار الأستاذ بحقيقة أمره ثم تمتنع؛ خوفا منها عليه، وطمعا منها بهذه الحياة التي كانت تحلم بها. فتندفع لمقابلة ابنة الأستاذ وطليقته، ولكنها رجعت منهارة مدمرة باكية صامتة مجروحة مكتئبة يائسة بائسة، مما دفعها إلى الرقود في الفراش يومين، والأستاذ وأمها مهتمان بها كل الاهتمام، كلما فتحت عينها وجدته بالقرب منها، لم ينم تلك الليلتين إلا جالسا على كرسي بالقرب من رأسها.

وغيث (عماد) والبنت الصغرى هند (ميلاد) يبكيان على حاله، ويشعران بالذنب لما يريانه أمامهما، جاهلينِ أن الأستاذ يعرف أنها ليست ابنته، وحين زارته أمه وابنة أخيه زينب التي يحبها ويحب أن يشرب القهوة من يديها، ويأخذ الحلوى منها، بكيا بشدة، والأستاذ مستغرب بكائهما، وهو لا يعرف سبب البكاء. ولكنه لحظ أن ابنة أخيه زينب قد تعلقت به كثيرا كثيرا.

بعد أن تحسنت حال وداد واستقر وضعها، بدأ غيث بالنقاش مع أبيه حول موضوع عودته إلى بريطانيا، يوجه إليه سؤاله : يا أبي، أنا أعشق بريطانيا، ولا أطيق الانتظار أكثر، أريد السفر لها والتمتع بها، فمتى ترجع؟

- قريبا إن شاء الله، يا عزيزي.
- يا رب، تسرع ولا تتأخر.
- هل تريد طردي من بيتك؟ هل فعلا انزعجت مني؟
- لا، يا والدي، ولكن انا أحب بريطانيا وأريد السفر إليها.
- يا ولدي، يا عماد، فعلا أنا أتعبتكم كثيرا، وضايقتكم كثيرا، و...
- ماذا تقول يا أبي؟! أنا غيث.
- لا، يا ولدي، أنا عرفت كل شيء. وأنتم لم تقصروا معي قط. فقد ضحيتَ أنتَ وزوجتكَ وداد وميس وصديقتكم ميلاد من أجلي.
- ولكننا فعلا أحببناكَ والله، وأنت فعلا أب لنا. لن نتخلى عنك، ولن نتركك.

ينقض كل من وداد وميلاد على أحضان الأستاذ، وهما يبكيان ويناديانه بأبي. تتحول جلستهما إلى مأتم حزين، فيبادرهم بالابتسامة قبل

الكلام، يا أبنائي، فعلا أنتم خير أبناء بارين، لم تفعلوا إلا الخير، ولم تقدموا إلا الصالح، سأبقى أبوكم إن وافقتم. وأتمنى أن تساعدوني في إيجاد أبنائي، ووصولي لهم.

عماد : يا أبي، أرجوك تأكد من أننا سنبقى أبناء لك مهما حصل. فنحن منذ أن رأيناك في المستشفى، وأنت تردد أسماء أبنائك، انجذبنا لك، وتفاعلنا معك، وحسدنا أبناءك عليك. فأنا كنت أحن إلى ريح الأبوة، فمذ كنت طفلا، كان والدي مريضا على فراش الموت، ومات سريعا قبل أن أعرف الحياة والأبوة، ارتحل عني، وانحرمت منه. وصرت كلما أرى أصدقائي وآباءهم أشعر بالحزن والغيرة، وأرجع بعتبي على ربي. ولذلك تبرعت بأن أكون ابنا لك، وأريح نفسك المتعبة، وأسعد نفسي.

الأستاذ : لقد فعلت كل الخير، يا ولدي، والله يجزيك خيرا.

ميلاد : نحن نشكرك، يا أستاذ، فقد جعلتنا نعيش تلك الحياة الجميلة التي حُرمنا منها، وتأسفنا عليها، وعانينا بفقدها. فقد ماتت أمي، وتزوج أبي، وتركني عند جدتي، تلك العجوز المسكينة المريضة التي كانت منشغلة بمرضها ووجعها حتى ماتت، فعشت في وحدة لا تُطاق، وصرفت وقتي كله للقراءة.

الأستاذ: كفاكم حزنا، أيها الشباب، فلنبدأ حياة جديدة كلها حب وأمل ونشاط وحيوية.

يحاول الأستاذ جاهدا محو حزنهم، وسقيهم ندى الأمل وقطرات التفاؤل؛ لينمو فرحهم، وتنتعش نفوسهم، وتبتهج أرواحهم، وتساعده ميس بكلامها الجميل، وتعليقاتها المفرحة.

انكشفت الوجوه، وانفضح المستور، وإنزال الظلام والغموض، ومع ذلك لا يزال الأستاذ يناديهم بأسماء أبنائه، ولم يتغير عليهم أبدا. وبدأ كل منهم يفكر بكيفية إخبار الأستاذ بأمر حقيقة أبنائه وبيان حالهم، فهم يريدون أن يفرحوه بأبنائه، ولكنهم يخافون عليه من الصدمة التي يتوقعونها ستنهي حياته، وتقضي عليه، فيتريثون، إلا أنهم ينصدمون بخبر أنه يبحث عن أبنائه. فيقررون مراقبته، ويتفقون مع ميس بمشاغلته حتى لا يفكر بهم ولا يبحث عنهم إلى أن يجدوا حلا للمشكلة.

ولا زال أهل زيد يتهربون منه ويبتعدون عنه حرصا منهم على عدم رؤية حزنه، وعدم إثارته؛ كونه يلح عليهم بكثرة الأسئلة التي تخص أبناءه، وهم لا يريدون إخباره بالحقيقة التي يخافون عليه منها. فكل ما يفعلونه هو مراقبته من بعيد أو ارسالهم له ابنة أخيه، زينب، ودفعها له بعد الاتفاق معها، فتذهب له زينب التي تتردد عليه؛ ولا زالت تقدم له فنجان قهوة وقطع من الحلوى، وتجالسه، وهي –غالبا– حزينة كئيبة باكية، وهو يرحب بها، ويمازحها، ويلاطفها، ويسمعها أجمل الكلام، وأرقه، وأعذبه. وكلما سألها عن سبب بكائها، لا تجيبه إجابة واضحة. لاحظ

الأستاذ أن ابنة أخية تنفعل حين تراه مع بقية البنات، أو مع ميس، ويبدو عليها الألم واضحا، والحزن في عينيها.

كلما يعيد موضوع طعنته، وطاعنه، يحاول الجميع إسكاته، وتغيير الموضوع، ويلاحظ ذلك معللا أنهم لا يريدون إثارة موضوع يزعجه ويؤلمه، فيحترم شعورهم النبيل ويسكت، وفي داخله حب لهم، وتقدير لموقفهم. ولكنه ظن في داخله أنه قد يكون أحد إخوانه قد أخذ بثأره، وعاقب من طعنه. وهنا يبدأ بالتألم والحزن في كونه قد سبب إحراج لأهله.

شعر عماد ووداد براحة نفسية حين عاشوا مع زيد وميس. ولم يفقدان هذه الراحة بعد أن بانت الحقيقة وعرف زيد أنهم ليسوا أبناءه؛ كون زيد وميس قد ارتبطا، وصار زيد أبا لوداد وعما بمثابة أب لعماد ومرشدا له. ولم يترك ميلاد، بل غمرها عطفه. وتمتنت علاقتهم ببعض، وكثرت الاتصالات بينهم حتى بعد أن رجع زيد إلى بريطانيا وتركهما في العراق. وكلهم يقدسون الجو العائلي، ويستظلون بمظلة أمانه محتمين بها عن مرارة الوحدة، ويتمسكون بروح الود والحب خائفين من بشاعة التفرقة.

فهم زيد أن كل من الشباب الثلاثة (عماد ووداد وميلاد) يعاني من نقص في أسرته، فمنهم من فقد أباه، ومنهم من فقد أمه، وكلهم يحنون

ويتوقون للعيش في جو العائلة الآمنِ، تحت جناحي الأبوين الحنينينِ. وكلهم استأنسوا بوجوده ووجود ميس معهم، وميس نفسها استأنست بجو العائلة. وعلى الرغم من اعتيادهم على العيش بلا عائلة مكتملة العدد، وعلى الرغم من كثرة انفرادهم بالكتب، والتوجه إلى العلم، والتركيز على الدراسة، وسلب العمل وقتهم، إلا أنهم لم يستطيعوا رد تلك الفرصة التي أرجعتهم إلى الطبيعة الفطرية بعد أن تحولوا إلى أناس همهم العمل كأنهم آلات. وكلهم عرفوا أن فعل الخير، والمبادرة له هو طاقة موجود في أهل بلده على اختلاف مذاهبهم، وتباعد أنسابهم. تلك الطاقة الخيرة تنفجر بوجه من يحتاج إليها بلا تردد ولا تفكير وكأن صاحب الطاقة الخيرة إنسان آلي، أو كأنها برنامج ذكي منظم يعمل بصورة تلقائية.

الفصل السادس

على الرغم من مراقبة عماد ووداد وميلاد وميس وأهل زيد لزيد، وعلى الرغم من مشاغلتهم له من خلال ميس، وعلى الرغم من إقناعهم إياه بأنه سيسبب لأبنائه مشكلة مع أمهم وأخوالهم، فلم يستطيعوا يقاف حركته الثائرة، وإطفاء نار شوقه، وعرقلة طريقه؛ للوصول إلى أبنائه، وإيجادهم، والاهتداء إليهم، والأخذ بأيديهم. فها هو الآن قد تحرك بقوة، وانتفض بحزم، وحطم كل القيود، ولم تصبره كل الأعذار. فلم تستطع ميس تركه وحيدا بعد أن عجزت عن إيقافه عن البحث عنهم، ومنعه من الذهاب إليهم.

فصارا يبحثان عنهم، ويسألان، فيجدان شابين ومعها امرأة في أحد الأفرع القريبة من بيت طليقته في ذلك الحي الشعبي المزدحم، فيسألانهم عن أبنائه، وإذا بهم : نعم، يا حاج، أننا نعرفهم. ولكن لماذا تسألان عنهم؟

- طبعا نحن نسأل عنهم لأمر مهم، فأرجوكم ساعدونا.

- طيب، يا عم، لقد فهمتُ، كأنك تريد أن تخطب منهم. أنا أنصحك بالابتعاد عنهم.
- الابتعاد عنهم! ولكن لماذا؟ وضحوا لي كي أفهم.
- إنهم أناس مزعجون، وعائلة مفككة، فأبوهم قد طلق أمهم، وبعض الناس يقولون إن سبب طلاقها هو لأنها امرأة قبيحة الوجه، سليطة اللسان، ذميمة الخلق؛ وبعضهم الآخر يقول إن أباهم تركهم وهرب إلى خارج البلاد.
- وكيف يعيشون إذا كان أبوهم ليس معهم؟
- أمهم موظفة. وابنتها الكبرى مطلقة حالها كحال أمها، فما كان بالأمهات ورثته البنات.
- مطلقة! ولكن من تزوجها؟ ولماذا طلقها؟
- تزوجها شاب من المنطقة، وطلقها بعد فترة، بعد مشكلات عويصة بينهما. ويقول طليقها إنها حادة في كلامها، تتعامل معي كأنها رجل، كلها عنف وعصبية، و...
- وأين هي الآن؟
- في بيتهم، مع أمها وأختها وأخيها.

- طيب، وماذا بعد؟
- ابنتها الصغرى تكثر الخروج من البيت. وابنها كثير المشكلات، متمرد على أمه، محب لإيذاء الناس، مكروه من قبلهم، لا أحد يرحب به، دائما ما يضربه الناس، ويهينونه بالقول والفعل. تصورا أنه قد طعن أباه قاصدا قتله، و.....
- طعن أباه! كيف! ومتى؟
- نعم، لقد طعن أباه، كان يريد قتله فور وصوله إلى المطار. وهو الآن في السجن. ناس بلا تربية ولا أخلاق، وإلا فكيف للولد أن يطعن أباه ويعتدي عليه!

ينتهي الكلام بينهم بالإغماء على زيد، وسقوطه على الارض كأن روحه قد سُلبت منه، فخر إلى الأرض كميتٍ، وكأن صاعقة من أعلى السماء نزلت غاضبة؛ لتصعقه، وتوقعه ميتا. نقلوه إلى المستشفى، وسيطروا على حالته التي هي التوتر الشديد، والصدمة المفاجئة. وإغماؤه هذا جعل أهله وكل من ميس والشباب الثلاثة يفيقون من حساباتهم الخاطئة في محاولاتهم بعده عن أبنائه، والتسريع في عودته إلى بريطانيا.

كل منهم صار يلوم نفسه، ويحملها المسؤولية، ومنهم من قال : هذا هو ثمرة ما زرعه الأستاذ في الناس من حب وود وإنسانية ونبل. غريب الأمر، وعجيبة الناس، فكل الغرباء والأجانب يبكون على الأستاذ، ويحزنون لأجله، وأبناؤه يبتعدون عنه ولا أحد معه؛ وكذلك أن الغرباء البعيدين عنه مهتمون به ومعالجون له من ألم أبنائه ورصاصات كرهم له؛ وهو من أثر في الجميع ونال أعجابهم، وحصل على تقدير منهم له، وأبناؤه ليس لهم إلا كرهه ومحاولة قتله والخلاص منه؛ عاش عشرين عاما في بريطانيا غريبا وحيدا، كل شيء مختلف معه، ولم يُصب بأذى ولم يدخل مستشفى، ولم يُعرف عنه إلا النجاحات والتميز، والآن هو في بلده وبين أهله وها قد دخل المستشفى مرتين، وفي كلتا الحالتين كاد أن يموت لولا رحمة الله.

وأخيرا، أفاق من غيبوبته، وكله حيره من أمره، فإن هرب من واقعه ولجأ إلى الأحلام وجد فيها ما يزعجه ويمزق قلبه، وإن عاد إلى واقعه وجد ما لا يسره. فتح عينيه، فرأى الناس عنده يخيم عليهم الحزن. فصوت أمه يرهقه، ومنظرها يربكه، ودموعها تقطع قلبه؛ إن دار وجهه عنها، تاق لها، ورأى وجه ميس مسودا وابتسامتها ذابلة؛ وإن حرك رأسه رأى الشباب الثلاثة باكين منهارين، أو ابنة أخيه منكسرة متألمة، وإن بعد نظره عنهم وجد إخوته مرتبكين ومرعوبين، وعوائلهم مكدرة.

بادرهم بالكلام بعد أن قلب عينيه ورأى الجميع من حوله، اخبروني من طعنني؟ ولماذا؟ اجيبوني، هل أصابكم الصمم؟!

اجيبوني، كفاكم تمثيل عليّ، ولعب بأعصابي، اجيبوني واريحوني، لماذا تخفون عني الحقيقة؟ وكيف لي أن أصدقكم بعد ذلك؟ وهل تتوقعون مني أنني سأسكت؟ هل تتوقعون أن تخفوا الحقيقة عني؟ سأعرف كل شيء تفصيلا وبأسرع ما يمكن.

ابنة أخيه : أبي، أرجوك، لأجلي أنا. أنا ابنتك التي كنت تقبل يديها، وتحملها، وتسمع كلامها، وتخاف عليها، وتلبي طلباتها، وتشتري لها الفراولة، وتحرص عليها، وتريد راحتها، هل نسيت؟ هل يحق لك نسياني؟ هل ابدلتني؟ هل هناك من أخذك مني؟ هل لا زلتَ تحبني؟ هل تريد أن تضيعني مرة أخرى؟ هل عجزت عن معرفتي كل هذه الفترة؟ ألم تشعر بيّ؟ ألم تحس بنظراتي لك وبكائي عليك؟ أسكتتها أمه قائلة : كفاكِ، يا هند.

فسحبها إليه، وأخذ يمعن النظر في وجهها، ويطيل التأمل، ودمعه يجري، وعيناه تنفتحتانِ كأنهما تريدان ابتلاعها، ووجهه يصفر ويحمر، ويداه يتلمسان وجهها ورأسها، وكلماته مرتعشة كارتعاش أصابعه، ومخه يسرع بإعادة صورها وهي طفلة صغيرة، ونفسه تعاني من حالة تأهب قصوى، وقلبه يضطرب، فلا يكاد يعرف ما يفعل، فصار يحتضنها

ويقبلها، ويبعدها ليمعن النظر في وجها، والناس من حوله سكارى بخمر الحزن، وذهول الموقف. حتى انجدته أمه مما هو فيه، وساعدته ميس. ولا زالت تصرخ وتناديه : يا أبي، خذني إليك، ولا تتركني. ما عدت أريد الحياة، امتني معك إن أردت الموت. أولست أنتَ أبي الذي ألوذ به فيحميني؟ أنا هند، يا أبي. أنا هند ابنتك، ولست زينب ابنة أخيك.

لقد انفجر بركان الأب الملتهب الحزين، فأسكته بركان ابنته الهائج الغاضب الثائر، فأحرق كلاهما الآخر.

لا ضغط دمه يستقر، ولا قلبه يستكن، ولا روحه تهدأ، ولا دموعه تقف، ولا قواه تسعفه، ولا صبره ينجده، ولا المواقف تمهله، ولا أبناؤه يخفضون له جناح الرحمة، ولا تقل عاطفته، ولا يضعف حبه، ولا تموت إرادته.

بدأ بترديد كلام جديد، وهو تنازلوا عن ابني، وأخرجوه من سجنه، لا تتركوه، ولا تعاقبوه، اسرعوا بإخراجه، أيها الظلمة، كيف سمحتم لأنفسكم بأن تبقوه في السجن! وتحول كلامه فيما بعد إلى صياح مكرر ممزوج بعصبية واضحة وانهيار فاضح. ولم يفرق معه أمر صياحه في نومه وأفاقته، فلم يتوقف عن صياحه المكرر، وإحدى يديه ممسكة بيد أمه، والأخرى ممسكة بيد ابنته، كأنهما ينعشان قلبه، ويغديان نفسه، ويعيدانه إلى الحياة، ويهبانه أوكسجين التنفس، وإشراقة الأمل، وقوة الصمود،

ويشجعانه على منازلة الموت وقهره، ومصارعة اليأس واضعافه، والوقوف منتصرا في دنيا الحياة وإن علاه جراح نفسه وأخذه نزيف آلامه وأرهقه الاجهاد.

وبعد أن أخرجه أهله والشباب الثلاثة وميس من المستشفى، حاولوا إقناع أمه بإخباره بالموضوع تفصيلا، إلا أنها رفضت، فلا تقوى على إخباره ومناقشته على الرغم من علمها بأدق التفاصيل؛ فرجعوا إلى ابنته، هند التي كان يظنها ابنة أخيه زينب والتي لم يرها طوال فترة هجرته بعد أن أُجبر على طلاق أمها، وحُرم من رؤيتها؛ وأفهموها ما يجب عليها فعله؛ لإنقاذ أباها مما هو فيه، واكدوا على محافظتها على هدوئها، ومحاولة إبعاد ثورة غضبه عنه.

أخبروا ابنته هند وأفهموها أنه وجب عليها مباشرتها بمهمتها الصعبة المرهقة الموكلة إليها، فأمامها هجوم أبوي عاطفي إنساني عنيف، يجب أن تتصدى له متسلحة بسلاح الحب والتعاطف والتناغم مع أبيها، مستغلة نقطة ضعفه التي هي حبه لها، ويجب أن ترفع راية النصر في إبعاد الأذى عن أبيها وتنقذه. وإلا فإن أي خطأ بسيط سيؤدي إلى موت أبيها أو على الأقل انهياره نفسيا وصحيا. مسكينة تلك الابنة المثقلة بهموم أهلها ومشكلاتهم، كأنها وردة فتية يافعة العود، فُرض عليها حمل هموم ثقيلة، وأحزان مرهقة، في أجواء بركانية مع تفحم القلوب؛ ووجب

عليها الفوز، صارت حياة مقربيها بيدها، فإن أخطأت قتلت أباها، وانهت جدتها، وافجعت أعمامها، ونحرت نفسها.

تقدمت نحو أبيها، وهي تجر قدميها بحذر وتردد، فمشيتها كمشية من يعبر منطقة ألغام، مرعوبا من الانفجار والموت، طامعا بالنجاة والأمان، مبتسمة ابتسامة مرتبكة خائفة، ومصفرة الوجه، حزينة العينين، قلقة مضطربة، محاولة جمع كل قواها المنهارة، حاملة بيديها المرتعشتين قهوته وبعض الحلوى التي يحبها. اقتربت منه، وهو ينظر لها بابتسامة ودمعة، ورقة وصرخة، وسعادة وحزن. تناول منها القهوة والحلوى، وقبل رأسها، وكلمها بصوت ما هو بصوته، وهو يحدق بعينيها المملوءتين بالقلق والشفقة : لماذا أتعبتِ نفسك، يا عزيزتي؟ وإن كان ما تقدمينه لي شفاء لنفسي، ولذة لروحي، ومصدر لسعادتي.

أجابته بصوت متهدج : أنت أبي الذي أحبه، والذي يسعدني البقاء معه. عانقها، وأجلسها بقربه، وهو يشعر بملك عظيم وعرش كبير، كأنها علاج لجراحاته الجسدية وبلسم، وشفاء من أحزان نفسه وعذاباته. وهو يكثر تقبيل رأسها وخديها، ويسمعها أجمل الكلام وأرقه، مع دوام تلك الابتسامة الممزوجة بين فرحه بها وحزنه على فراقها وأخويها وعلى نفسه. ثم كلمها بود ورقة : اخبريني، يا بُنيتي، عن حياتك، ودراستك.

- لم أستطع إكمال دراستي، فقد تركت الدراسة، ولم أكمل حتى المتوسطة. فأنا لا أحبها.
- لا، لماذا!
- أما حياتي فالحمد لله، أنا أشعر بالسعادة بوجودك.
- لم تجيبيني عن سؤالي، لماذا لم تكملي دراستك؟ وكيف كنت تقضين وقتك؟ وماذا تفعلين؟
- أنا أهتم بالبيت وأموره، وأحب مشاهدة التلفاز.
- وماذا عن أختك؟
- هي بخير، والحمد لله. وهي تحبك كثيرا، يا أبي، ودائما تتذكرك بخير، وتشتاق لك.
- ولكن لماذا لم تزرني!
- هي لا تريد أن تراك وأنت منزعج وحزين، هي قالت لي إنها ستزورك، فهي تحبك، ومشتاقة لك.
- يا حبيبتي هند، كلميني بصراحة، وكفاكم إخفاء الأمور عني.
- نعم، يا أبي، أنا أكلمك بصراحة، ولا أخاف منك، فأنت تحبني ولا يمكنك ضربي، ولا التعصب عليّ، أ ليس هذا صحيحا؟

- وماذا عن أخيك؟
- هو شاب طائش، يسهل خداعه وتسييره، دعك منه، فأنا مشتاقة لك، أريد أن تمازحني، وتحكي لي عن حياتك.
- ولكن ما سبب هجومه عليّ؟ ماذا كان يريد مني؟ وهل أمك هي من خدعته ودفعته علي ليطعنني؟
- لا، لا يا أبي، أرجوك، لا تظن سوء، وهل تظن أنني أقبل أن يتفقا عليك! ولكن هو طائش وأرعن فقط.
- اخبريني بصراحة، لماذا طعنني؟
- طيب، سأجيبك، ولكني أخاف من عصبيتك وحزنك، فعدني بأن تحافظ لي على ابتسامتك.
- طيب، أنا أعدك.
- قبل أن تأتي بيومين فقط، هو بدأ بتناول بعض المسكرات، وهي التي دفعته لذلك، وإلا فهو يحبك.
- مسكرات! وكيف سمحتم له!
- هو فقط في بداية تناوله لها.
- وأين هو الآن؟

- سيخرج من السجن هذه الأيام.
- ولكن لماذا إلى الآن هو في السجن! أ لم يتنازل عنه أعمامك؟ هل تركوه في السجن! لماذا لم يساعدوه ويخرجوه؟
- هم دائما معه، وقد تنازلوا عنه، ولكن الإجراءات معقدة. لا تقلق عليه، يا أبي، ثق بي، أنه بخير، وسيخرج. أم أنك لا تثق بابنتك الغالية هند!

وتتدخل أمه؛ لتغير الموضوع : يا بني، إن المسكرات والمخدرات صارت منتشرة في بلادنا. وهو لم يتناولها كثيرا، بل ثلاثة أيام فقط. هو سيتركها وكل شيء سيكون بخير. المهم أنك ترتاح، وأنا مشتاقة للخروج معك إلى سفرة ترفيهيه في الأرياف.

حاضر، يا أمي. اسمعي، يا وردتي، يا بنيتي، اتصلي بأختك، واخبريها اني أريد أن أراها.

- نعم، يا أبي، سأفعل، وستأتيك.
- يا حفيدتي، اعدي لنا طعاما، وجهزي كل ما نحتاجه في السفرة إلى الريف، فأنا مشتاقة للتنزه مع أبيك.
- وماذا عني، يا جدتي؟ أم أن السفرة خاصة للأم وابنها فقط؟

- طيب، جهزي نفسك؛ لتكوني معنا.

الفصل السابع

لقد فرضت الظروف على زيد كتم براكين أحزانه، ومسايرته لأمه وابنته على الرغم من أن كل جراحاته وعذاباته تغلو بداخله. فقد كتم أعاصير أحزانه ورعد كلامه وبريق غضبه وأمطار ضيقه؛ حرصا منه على إزعاج ابنته المسكينة، وخوفا منه على أمه وصحتها. لم يقتنع بما قالاه له، وكلامهما واضح له وقصدهما مكشوف، لا يمكنهما تظليله أو اقناعه بما هو غير مقنع إلا أنه يتغاضى. هي عودة منه إلى وحدته، والاستناد على نفسه.

ما أن رأته ميس قبل أن تجلس معه في تلك الشرفة، قالت له : لم تخبرني ما دار بينك وبين أمك وابنتك هند، أم أنك لا تحب أن تخبرني؟ أو أنك تضع حواجزا بيننا؟

- لا، يا أيتها النبيلة الراقية. لا هذا ولا ذاك مما قلته. ولكني في بعض الأحيان أحاول أن لا أزعجك بأحزاني. أحب أن تكوني فرحة مبتسمة، فمنك أستمد قوتي.
- إن أردتني أن أكون فرحة ومبتسمة، فلا تخفِ عني شيئا، فأنا أحب أن أشاركك كل شيء إلا إذا أبعدتني أنت عنك.
- طيب، لا عليك سأخبرك. لقد حاولت ابنتي وأمي تخفيف الصدمة عني وإبعادها. المسكينتان كانتا تريدان إسعادي، ومن كلمني هو حبهما لي وحرصهما عليّ، وليس عقليهما.
- هذا هو حب الأم، وقلبها النقي الطاهر؛ وهذا هو حب البنت لأبيها.
- والله، أنا مدرك أن ابنتي الكبرى تكرهني، ولا تريد أن تراني؛ وأن ابني حاقد علي، ويريد قتلي؛ أما مسألة تعاطيه المخدرات، فهي قد تكون غير صحيحة، وإن كانت صحيحة، فهذه كارثة؛ لأن المخدرات تكشف داخل الإنسان، وبالتالي فما في داخله هو الخلاص مني والانتقام والتشفي؛ ثم أن ذلك يعني أن ابني منحرف، وأيضا هذا يؤلمني كثيرا.

- يا عزيزي، أن الأطفال بطبيعتهم يميلون لأمهم، ويحبونها. ويرون أباهم ظالما لها معتديا عليها. وإن كل ما بداخلها من حقد ستنقله إلى أولادها؛ ليكونوا سلاحها الموجة ضدك الذي تضربك به. هي ستحارب حتى النهاية. وهي غبية-بلا شك-لأن الزوجة حتى وإن فازت على زوجها فهي خاسرة لأسرتها وزوجها وقد تخسر أطفالها أيضا، والتمزق والدمار والانكسار والتدهور والضياع واقع لا محالة. فمعاقبة الفلاح لأرضه، وقطع أشجاره، وتعطيشه لها، مهلك للفلاح نفسه.
- مساكين الأولاد، لقد لاقوا الظلم والعذاب وآلام بلا ذنب اقترفوه. ضميري لا يتوقف عن ذبحي، ولا يرحمني، ولا يمنحني استراحة قصيرة على الأقل. أنا أتألم كثيرا.
- على رسلك. فقد جرت الأمور، وانتهت. فلا حاجة للندم. ويجب أن تعلم أنك ستلاقي منهم صعوبات في التعامل معك، فهم يرونك أبا غير مثالي، ولن يفهموا موقفك كما تتوقع؛ لأن عاطفة الأمومة أقوى من عاطفة الأبوة، وهذا هو التكوين البشري الغريزي، ثم أنهم معها، وهي تشحنهم كرها، وتشجعهم على محاربتك.

انفجرت بالبكاء، وذرف الدمع، وثورة الحزن، وتفجع الألم. فترك الحديث معها، وتناسى آلامه وجراحه، وصار يمسح دموعها، ويقبل رأسها محاولا إراحتها، وإعادتها إلى طبيعتها الفرحة.

وفي اليوم التالي، تتفاجأ بإصراره على الخروج من البيت وحيدا، لا يريدها أن تأتي معه. فيصرخ غضبها، فهي تحرص عليه وعلى مرافقته؛ كونها تحبه، وتتقرب منه وتتودد إليه، فقد وجدت عنده ما تفتقده منذ سنين، وقد بادلها الحب، وصارا حبيبين؛ لذلك تريد أن تبقى قريبة منه، ولا تحب أن يخفي عنها شيئا؛ ومن ناحية أخرى هي تخاف عليه من أن يصدمه أهله أو أبناؤه. هي تعامله معاملة زوجها. بعدها أجبرته على الخروج معه. هي عودة لهما للحياة الزوجية.

وكانت وجهته بيت أخيه، وإصراره يثقله على وجوب مقابلة ابنته الكبرى، وابنه. ولكن أخاه كان أكثر إصرارا منه على عدم مساعدته في مقابلتهما. فأكثر الأسئلة عن ابنه. ولم يحصل على إجابات شافية من أخيه. ومن راه من أهله هرب منه؛ كونهم لا يقدرون على مصارحته بالحقيقة، وكونهم يخافون عليه من الحقيقة، وكونهم لا يحبون ان يروا أحزانه. فخرج وهو غاضب منهم. ولجأ إلى الاتصال بابنته الصغرى، هند. ولكنها لم تجبه. وبعد قليل جاءت مسرعة إليه، فألح عليها إلحاحا شديدا بأن يقابل أختها الكبرى الآن، وما كان منها إلا اختلاق الأعذار.

وهذا ما أجبره على الذهاب إليها في بيت أمهما؛ لمقابلتها على الرغم من رفض ابنته الصغرى لهذه اللقاء المفاجئ.

وصل إلى بيت أبنائه، ودخلت معه ابنته الصغرى، هند وميس. وتفاجأت به ابنته الكبرى، زينة في بيتهم. فأخرسه النظر إليها والتأمل بها، وأحرقه الشوق لها، ومزقه الحنين لها، وتسارعت وتباطأت دقات قلبه وخطوات قدميه، وكبرت عيناه، وأبى جفناه أن ينطبقا، وأصفر وجهه وأحمر، وأخذه السكر، وانتابته الذكريات.

وإذا بصواريخ صوتها الحاد الحارق القوي القاسي الثابت الثاقب يخترق قلبه، ويقتل حنينه، ويجرح نفسه، نعم، فقد وجهت زينة كلامها له، وقابلته بما يصدمه : من أنت؟ وماذا تريد؟ كيف دخلت إلى بيتنا؟ ومن سمح لك؟ ومن قال لك إننا نريدك؟ وكيف تجرأت على النظر إلي؟

- هل عرفتني، يا بُنيتي؟
- لا. ولا أريد معرفتك، ولا رؤيتك. فاخرج من بيتنا، ولا تأتِ ثانية.
- أولست أنتِ ابنتي؟
- لا، لست ابنتك، وليس لي أب. ولا تكثر من الكلام، اخرج وابتعد عنا، وإياك والمجيء لنا ثانية.

ميس : هو أبوك، وجاء إليكم لحبه لكم، و....

- ونحن لا نريده الآن. فقد مات في أعيننا، وانتهى أمره، بل أن وجوده يزعجنا. فخذيه وانصرفا، وابتعدا عنا، فلسنا بحاجة لأحد.
- يا بُنيتي، على مهلك، فعلى الأقل أنا وهي ضيفاكم، و...
- ومن قال لكما إننا نرحب بالضيوف؟ أنتما أعداؤنا، ولستم بضيوف. لقد جلبتم لنا الأذى والإزعاج منذ أن جئتما إلينا، فأخي في السجن، وأختي حزينة منكسرة باكية. ماذا تريدان منا؟
- يا بُنيتي، أرجوك اسمحي.......
- لا تناديني بيا بُنيتكِ، فأنتِ لستِ أمي. وأنتِ وهو عدوانا، تريدان تدمير حياتنا أكثر مما دمرها. لقد رمانا وسافر، وتحملنا نحن نتائج أخطائه، ودفعنا الثمن مستقبلنا وسعادتنا، وعاش الحزن معنا والحرمان. فتعودنا، وصار ذكره ألما لقلوبنا.
- أنت جميلة، والمستقبل أمامك، وأخوك سيخرج من السجن، وأبوكم سيكون معكم، وستعيشون حياتكم.....
- نعيش حياتنا! أي حياة! فقد دمر كل شيء. ورمانا في بحر الحياة المتلاطم الأمواج. وقد تعرضنا للإهانات، وللكلام الجارح، وعيرتنا

الناس واذلتنا، وخسرنا حياتنا، وتفرقنا. ولا نعرف ما القادم بوجوده. ليته لا يرينا وجهه مرة أخرى. فأخرج، نحن لا نريدك. اخرج. اخرج.

صار يعلو صوت صراخها مرددة اخرج لا نريدك، فبادرت ابنته الصغرى بإخذه إلى خارج البيت، وساعدتها في ذلك ميس. رجعا خائبين مختنقين منكسرين متحسرين. وحين وصلا إلى البيت، سعت ميس جاهدة إلى محاولة تسليته، وإبعاد الحزن عنه، فكانت خير درع له يقيه-أذا اشتد بلاؤه-من سهام اليأس ورماح الاكتئاب وضربات الموت. فحصرته بين أمرين أما أن ينسى ألمه أو يتناساه؛ حبا لها، وتقديرا لما تفعله من أجله في إبعاد الحزن عنه وطرد الأذى وإسعاده وإراحة نفسه.

لم تبخل الحياة عليه، فحين فقد عائلته، وعاد إلى وحدته، حصل على حبيبة تسعى بكل ما لديها من قوة لإراحته واسعاده وتعويضه عما فاته. صارت مغرمة به متيمة، مجنونة بحبه، لا تخاف من شيء ولا تخشى، وثقت منه وأمنت به، فكثر اسمه على لسانها، ولا تتركه أبدا حيث ما يكون تكون معه. وهو مستمتع بحبها له، يلجأ إليها دائما وأبدا، بئر أسراره، وواحة سعادته، وشاطئ نجاته. فهي عودة منها إلى الحب بعد أن هجرته، وعودة إلى العيش تحت زوج.

الفصل الثامن

لم يترك الشباب الثلاثة زيدا، فقد تمسكوا به، وتوسلوه أن يبقى معهم في بيتهم لحين عودته إلى بريطانيا بعد أن ينجح فيما يريد، ويعيش السعادة مع أبنائه. ولا زالت ميس معهم في نفس البيت. وقد فهم الجميع أن هناك علاقة بين زيد وميس، ستكلل بالزواج بعد أن ينتهي زيد من مشكلته مع أبنائه. تلتفت وداد إلى أمها وتسألها بود : يا أمي، لقد عشتِ سنين طويلة بعد وفاة أبي وكأنك رجل، فلماذا الآن ارتبطتِ بزيد؟

- لم أشعر بوجود رجل بعد أبيك قط. كنت أهتم بكم كثيرا، وأخاف عليكم، وأحرص على مستقبلكم، وبعد أن زوجتكم كلكم، شعرت بالأمان عليكم، ولكن الوحدة لا تُطاق، والبيت كئيب جدا.
- وماذا بعد؟ احكي لي، يا أيتها العاشقة

- لقد وجدت رجلا نبيلا يحبني، ويثير أنوثتي، ويشعرني بالأمان والاستقرار، ويراعي مشاعري، ويهتم بي، ويقدر ما أفعله من أجله، ويقدس حبي له. فعلى الرغم من كل ما يمر به من أزمات نفسية وصحية، فهو يلاطفني ويسمعني أجمل الكلام، ويحرص عليّ، ويحافظ على ابتسامتي، ويفعل ما يسعدني.
- أ تريدين الهروب من وحدتك أم أنك فعلا قد أحببته؟ وكيف نجح في كسب ودك وإثارة حبك له؟
- وهل هناك من النساء من تسطيع أن تقاوم جاذبية وديع! إن ما زادني حبا له، هو أنه يتعامل معك كأنه هو فعلا أبوك، ولاحظتُ أنك ترينه فعلا أباك، كلاكما عوض الآخر عما ينقصه ويحتاجه، هو يحتاج ابنة، وأنت تحتاجين أبا. وهذا الشعور بالأمن والأمان والحب بينك وبينه، هو ما كنت أحتاج إليه، فقد انحرمت من زوج محب لي ومتودد بعد وفاة أبيك. فبعد أن مات أبوك، صرت أخاف عليكم من الضياع، فكرست حياتي لكم؛ وكذلك كنت أخاف على جمالي ومالي ونفسي من غدر الرجال وحيلهم. فكانت عودة مني إلى العزوبية.

- هو ساحر لقد حولك إلى كيان حب له، وكتلة شوق له، وصار روحا لجسدك، وبلسما لجرحك. لقد أعادك إلى الأنوثة.

تحاول ميس مساعدة زيد في حل مشكلة بدافع الحب، وليس بدافع الإسراع بالزواج منه؛ كونهما متفقان على الزواج بعد الانتهاء من حل مشكلته. لذلك استطاعت ميس معرفة الصديقة المقربة لابنة زيد الكبرى، زينة من خلال ابنته الصغرى، هند؛ للاتصال بها؛ لإصلاح ما تدمر بينها وأبيها، ولوصل ما أنقطع بينهما، وعلى أمل إحياء ما مات من مشاعر بينهما، ولإرجاعها إلى أبوته. فقد قررت التوسط بينهما خفية عنه، فمنظره وهو منكسر يدمي القلب، ومنظرها وهي تطرده وتصرخ عليه يثير الشفقة عليها، وخوف زيد عليها من عقاب عقوق الوالدين الذي توعد به الله، وقلقه على مصيره ومستقبلها يحزنان ميس كحزنها على يتم زينة وأبوها خير اب على قيد الحياة، وكله إقبال عليها.

تأخذ الذكريات ميس إلى ما كان بينها وبين ابنها وزوجته من مشكلات مزعجة تعرك مزاجها وتخدش عاطفة أمومتها. فقد عانت كثيرا من زوجة ابنها، وابنها كان ضدها بعد أن كان كل أملها، فلم تتوقع منه يوما مهاجمته فضلا عن أنها المعتدى عليها من قبل زوجته، وزيادة على ذلك أنه قاطعها وأوقعها بأقسى عقوبة، فلم تسطع تحمل الوحدة والعزلة بعد كانت محط طواف لأبنائها. لم تلتفت يوما إلى نفسها قط،

هي ترى أن نفسها هي أبناؤها، فتوليهم كل رعايتها واهتمامها. فصدموها وقاطعوها وعقوها وعاقبوها برميها، فصارت كمن قطعه انفجار سلاحه الذي بنى عليه نجاته.

ولا تزال تردد كلام زيد : لقد ألتقى حال فقدي لعائلتي مع حال فقدك لعائلتك، ليرسما صورة حزينة مبكية معبرة عن عدم اشباع النفس البشرية من طعامها العائلي المغذي لمشاعرها الفطرية والواقي لها من الأزمات الحياتية التي من شأنها أن تسقطها في مستنقعات ملوثة من الحضيض الأسفل المهين لها مهما علت وتعالت تمكنت ماديا ومعنويا.

هي مدركة أن هناك ثنائيات في حياة الإنسان لا يمكنه العيش من دونها؛ فلا يعيش الإنسان سعيدا بلا عائلة، ولا تعيش العائلة سعيدة بلا طفل، ولا يعيش الطفل سعيدا بلا أخ. شعاع العائلة والجو الأسري آخذ أبصار الجميع، وزيد مركز تجمعهم، وسقفهم الذي يجمعهم. منهم من عاش في بيئة شغلته عما يبتغيه من نقص أسري مع الحفاظ على نقائه، ومنهم من عاش في بيئة نمت بداخله كل الاحقاد والضغائن والتركيز على من يظن أنه تسبب في دمار أسرته؛ وواضح أن زيدا يرى ابنته الكبرى زينة تغذت الحقد الاسود من أمها فصارت أفعى سامة مع أبيها. ولذلك إنهار صبر ميس وخصوصا بعد أن رأت دموعه وحزنه، وابتسامته بلقاء ابنته زينة، وصمت وجهه، وصراخ روحه، وأمله في

احتضانها ويأسه حين طردته، وانكساره عليها وأنينه، واشتياقه لها وحنينه، وحبه الأبوي الإنساني الفطري.

تعرفت ميس على صديقة زينة واسمها (أسماء)، وساعدها ذكاؤها الاجتماعي، وروحها المحبوبة، وكلامها المعسول، وأسلوبها الراقي على كسب صداقة تلك البنت، وتلبية رغبتها لما تريد. فشرحت ميس المشكلة وما تريده منها، وهو مساعدتها في طرد سواد الحقد، وظلام الكره من قلب صديقتها زينة، وإحلال بياض السماح ونور المحبة؛ لتعود إلى أحضان والدها المحب لها والمحتضن. فأبدتْ تلك الصديقة استعدادها لهذه المساعدة الإنسانية مع تأكيدها على صعوبة حل تلك المشكلة، ووعورة الخوض فيها؛ لما تعرفه من صديقتها نحو شعورها لوالدها.

بعد أن رأت أسماء زينة بمزاج حسن، اتصلت بميس طالبة منها المجيء فورا؛ للقاء زينة. وحين دخلت عليهما تغير لونها، وبان غضبها، وظهر هجومها، وما رحبت بها قط، فحيتها صديقتها فقط، وأجلستها إلى جانبها. ثم عادت لملاطفة صديقتها ومحاولة إسكات غضبها، وكف هجومها؛ وبينت لصديقتها زينة أنها تعرف ميس، وهي صديقتها، وأن ميس ليس لها صلة قرابة بأبيها، بل هي ضيفة جاءت لزيارة ابنتها فقط، أما مجيؤها الآن فهو لمساعدتكما ولإصلاح حالكما.

أجابتها زينة بما اعتادت عليه من جواب مع الناس، وجه شاحب عابس عينين غاضبين وصوت مدوٍ وكلمات جارحة وأسلوب غليظة : أنا لست بحاجة للمساعدة، ولست بحاجة لأحد، ولا أريد رؤيته أبدا. ولا حاجة لمجيئك. وأنا طلبت منك عدم المجيء إلينا مرة ثانية، فلماذا جئتِ! لقد قلت لك وله إننا سنكون بخير من دونكم، فلماذا لا تكفون عن إزعاجنا!

- يا حبيبتي، إن ميس ليس لها علاقة بأبيك. وهي صديقتي وضيفتك، فأرجوك دعينا نكرمها ونرحب بها ونقدرها.
- ما الذي تريده مني؟
- هي الآن صديقة لي وضيفة لك، ولا شيء غير ذلك. ودعك من كل شيء.

استطاعت صديقتها الوحيدة التي تشفق عليها بصداقتها لها، كسر غضبها وإضعافه، واستطاعت ميس التقرب من كلتيهما، وكسب صداقتهما وودهما، ولم تتطرق لما جاءت به. بعدها أطلقت زينة العنان للسانها؛ لتقول ما بداخلها. فتتوجه لميس بقولها : أنا لست إنسانة مريضة نفسيا، ولا سيئة، ولكني رأيت من حياتي ما لا يُطاق. فحين كان أبي معنا كنا نعاني من مشكلات بينه وبين أمي؛ ثم طلبت منه الطلاق فطلقها، وعشنا حياة أكثر تعاسة بعد أن ظننا أننا سنعيش براحة

وسعادة. فكرهته، وحقدت عليه ككرهي لنفسي وحقدي عليها. وكنا كلما نكبر تكبر معنا مشكلاتنا، وتتعقد حياتنا. وكلما يضغط علينا مجتمعنا نحقد على أبينا أكثر وأكثر، وكلما نرى غيرنا مرتاح ومترف في حياته نتمنى أن نعذب أبانا. وكان أغلب الناس يعيروننا بأن أمنا مطلقة، وأتفه الناس يستطيع أن يسيء لنا بكلامه فلا أحد يدافع عنا، ولا أحد يقف بجانبنا. والغيرة تقتلنا ونحن نرى أن الجميع لهم من يحبهم، ويدافع عنهم. وهذا ما جعلنا نترك الدراسة، ونجلس في البيت.

بعدها لم يستطع جمالي أن يغطي على ما تعيرني به الناس، وهو ما لا ذنب لي فيه، فأمي مطلقة ليست بسببي، وليست هي المطلقة الوحيدة. وحين تزوجتُ من شاب لم تكن فيه المواصفات التي أريدها، ولكنني أردت الهروب من واقعي، ومحاولة التغيير والبحث عن السعادة والاستقرار. ولكني وجدته وأهله يعيروني بطلاق أمي وهجرة أبي، ويعتدون عليّ ويهينوني ويذلوني؛ لأنه لا أحد يدافع عني في هذا المجتمع الذي يحترم القوة، ولا أحد يخيفهم، حتى بالغوا كل المبالغة في الاعتداء عليّ واهانتي وشتمي وأهلي، ومع كل ذلك وأنا راضية ومطيعة لهم، ثم رموني شر رمية وأقبح طلاق بلا حقوق ولا اعتبار.

وصرتُ عالة على أهلي، وكبر عارنا، وزاد الكلام علينا، وكثر احتقارنا، وثقل حزننا، واسودت حياتنا، وتوعر طريق مستقبلنا. وصرتُ

عونا لأمي في مساعدة الناس في تعيير أختي وأخي. وصارت أختي تخجل مني أكثر وأكثر، بل وحتى أكثر مما خجلت أنا من طلاق أمي، ولكن أختي ليس لها إلا الدموع والحزن والاكتئاب. وما رأيت قلب أبي يرق على أختي التي كان يدللها.

صار أخي منزعجا منهارا كئيبا لا ابتسامة له، ومنكسرا مستعارا مني ومن أمي. لم يسانده أحد، ولم يهتم به أحد، بقيت طفولته ناقصة، ولا يعرف معنى الأبوة، ولم يربه رجل كي يعرف أفعال الرجال وتطلعاتهم وهمومهم. بل كانت أغلب تصرفاته هي تصرفاتنا نحن. وحين خالط بعض زملائه في المدرسة أو أقارب أمي، رجع إلينا غاضبا معكر المزاج، فغيرته تقتله وهو يقارن نفسه بابن أبسط الناس، فيجده أفضل منه؛ أو حين يتعرض لهم أحد، هناك من يحميهم ويدافع عنهم، أما هو فلا أحد له ولا أب ولا أهل ولا أخ. فإن لم تكن هناك مشكلة معه ومع زملائه فهو يعيش الغيرة القاتلة، وإن حدثت مشكلة فهو يعيش الضعف والوحدة. فكان يشتم أباه دائما، ويذكره بسوء، ويتوعده بشر، وكلما وجه لومه لأمي، أكثرت الشكوى من أبي، وألقت اللوم عليه، ودعت عليه بالهلاك. فاشتركنا كلنا بأمنيتنا التي هي قتله أو تعذيبه؛ لنرتاح منه، ونتشفى به، وننتقم منه.

تمنيت أن أكون مثل بقية البنات في أن أكون بين أهلي مع والدي وأخواني وأخواتي؛ وأن أكمل دراستي، ويوصلني أبي بسيارته، ويرعاني ويحميني ويهتم بي. وأنا أهتم به وأرعاه. وبإمكاني أن أترك كل شيء، أريد فقط أن أكون كبقية البنات البسيطات جدا، بأن يكون لي أب يحبني ويهتم بي ولو بالكلام فقط، وأعيش في بيت فيه حب ومودة وأمان استقرار.

أخذها الدمع والحزن، ونال منها الألم والضعف؛ تقيأت ما بداخلها من سم، لم تستطع تحمله، ولم يتركها. امتزجت آلام الطفولة بأحزان الشباب وكآبة المرهقين وحكمة البالغين وحرمان الضائعين وخسارة الفاشلين ونوح المدمرين وقلب المفجوعين وخوف المفزوعين ودمعة المغدورين وندامة المقصرين وتوق المشتاقين؛ وقد عبرت عنها بلسان البائسين وكلمات المجروحين وأسلوب المحرومين ونفس المظلومين المغدورين. فهدأتها صديقتها. فكانت لها عودة بعيدة إلى طبيعتها كبنت. وميس تسمع وتشاهد ولا ترد، بل تحزن وتتألم وتبكي. وتتذكر معاناتها وأطفالها والاهمال الذي أصابهم بعد وفاة أبيهم، وتتكشف لها حاجاتهم، وتتفاعل مع ما تقوله، وتعطف على أبنائها أكثر، ويكبر زيد في عينيها أكثر، وتتمسك به كل التمسك، وتحبه أيما حب، وتتعلق بها.

بعدها، توجه كلامها إلى ميس، قائلة : أرجوكِ، اوصلي رسالتي له، اخبريه أن يتركنا في حالنا، ويبتعد عنا، فنحن بخير من دونه، ولا نريد أن نراه أبدا. هو مصدر حزننا. لا تبقي ساكتة، كلميني، وافرحيني بإخبارك إياي بابتعاده عنا. لماذا أنتِ ساكتة، يا ميس ؟ كلميني.

- لا أكلمك؛ لأنك لا تقبلين كلامي على الرغم من أنني ارتحت لك وانسجمت معك وتضامنت، وأحببتك. وايقنتُ بأنك إنسانة رقيقة ومظلومة.

صديقتها (أسماء) : بلا شك أنها إنسانة رقيقة وراقية. وأنا أحبها كثيرا.

ميس : مساكين الأبناء يتحملون أخطاء الآباء، ويدفعون ثمن حماقاتهم. وكل منهم يرمي الخطأ على الآخر، والنتيجة هي دمار الأسرة وضياع الأطفال وإن كبروا. وأنا معها ضد كلا الأبوين، لا أستثني منهما أحدا، ولكن يعجبني من يعترف بما فعله من خطأ، ويحاول أن يكفر عنه، ويطلب السماح، ويلح على التصحيح.

زينة : يكفر عن خطئه! كيف! وهل يمكنه أن يكفر عن ضياعنا ودمارنا وأحزاننا! هو الآن يدمرنا أكثر بمجيئه إلينا. أنا أكرهه، ولا أريد أن أراه أبدا.

- يا عزيزتي، إن الدين يأمرنا باحترام أهلنا ومسامحتهم مهما بدر منهم، وإن الإنسانية تجبرنا على أن نرحم الناس. وليس هو المخطئ الوحيد، بل أن أمك تتحمل شيئا من الخطأ. ومع ذلك هو جاء الآن معتذرا نادما.
- أمي! قطعا أن أمي أفضل منه بكثير. وهو المخطئ، وليست هي.
- يا عزيزتي، أرجوكِ اسمعيني، ولا تتعصبي، وفكري في كلامي قليلا.
- لا، لن أفكر في شيء، ولا أريد أن أراه.

الفصل التاسع

استغربت ميس من وضع زيد، فهو يريد الخروج من البيت مبكرا، وهو ليس على ما يرام كأن هناك ما يخيفه أو يجعله يضطرب. لح عليها حبها له نحو إراحته وإسعاده، وأرادت أن ترافقه لحرصها عليه، فاقربت له بكلام لين : يا حبيبي، ملابسكَ جميلة، وأنت وسيم. ما رأيك أن نخرج معا؟

- لا، يا ميس.
- هل تبخل عليّ بالخروج معك، والتباهي بك والتفاخر؟
- يا ميس، أرجوكِ، انا متعب ومرهق وحزين.
- يا ليتني متُ. أنت حزين وأنا معك كيف، يا حبيب روحي؟

- افهميني أرجوك، إن صبري لا يسعفني كي أحتمل أكثر فراق ولدي، فأنا تواق لرؤيته، نواح على فراقه، دؤوب على كسب وده، غفّار لذنبه ونسّاي؛ فهو كبدي وروحي التي تتنقل أمام عيني.
- على رسلك، لن يكون إلا ما كتبه الله علينا.
- إن ابني مغلوب على أمره، محروم من عطفي، مظلوم في حياته، وأنا السبب؛ لأني لم أختر له أما صالحة، ولأني طلقتُ أمه، وحرمته من الأبوة الطبيعية الفطرية.
- كل شيء سيكون على ما يرام، ولكن ارجوكَ ارحمْ نفسك وارحمنا. يا حبيبي، لا أحد لي غيرك.
- يا روحي أنت. أنا أريد الذهاب إلى السجن؛ لرؤية ولدي.
- لا، أرجوكَ لا تذهبْ إلى السجن، فلننتظر قليلا لحين خروجه من السجن.
- يا ميس، إن حبي لولدي يسوقني سوقا لزيارته في السجن، ناسيا طعناته وجراحاته، فقد كنت ألمس تلك الجراحات؛ لأروي عطش شوقي لابني الطاعن، كأني ألمس هدايا نفيسة من شخص غالٍ. لم أتخيل أن هذه الطعنات والجراحات هي اعتداء عليّ، بقدر ما

أتخيلها أنها كلمات عتاب بسيطة موجهة من ابن إلى أبيه بدافع الحب. وتارة أتخيلها نتيجة طبيعية لمن يلعب بالنار عابثا، فأنها تكويه غير مهتمة له. فأنا طلقتُ أمه، وبذلك فإنه الآن منزعج مني، ويهاجمني. وفي ذلك تخفيف لتأنيب ضميري؛ لذلك فأنا لم أحقد عليه لما فعل من خطأ فادح في طعني. ومن ناحية أخرى أني أب متألم على مصير أبنائي وضياعهم. وأريد إصلاحهم وتعويضهم ما فاتهم.

- لن أتركك تذهب وحيدا. سأرافقك أنا.

وصل إلى السجن، ودخل المكان الذي فيه ابنه، واقترب من الشباك، فانفتح عليه نظر حاقد، وروح مجاهد؛ وتجلهم عليه وجه عدوٍ، وإقبال غازٍ؛ وانفجر عليه صوت عاصف، وكلام غاضب؛ كل ذلك من قبل ابنه الذي طعنه قاصدا إياه كأنه لم يشفِ غليله حين طعنه سابقا. وكأنه يريد تحطيم حديد الشباك؛ ليصل إليه، وينقض عليه، ويقطعه قطعا. وله ثبات ثائر، وعزيمة شجاع، وتعصب موتور، وتلهف مغتم، وتسرع متهور، وغضب طائش، وحركات أرعن. وميس مندهشة مذعورة مرعوبة وهي ترى غيثا بهيأة وحش جائع، مخيف الشكل وغاضب الوجه حاد

الصوت، يريد ان يحطم شباك السجن حتى سال الدم من يديه، ثم من رأسه بعد أن ضربه مرات بالشباك.

تفاجأ الأب بما راه وسمعه من ابنه، فحين وقعت عيناه عليه سمعه يخاطبه وبصوت رعدي : نجوت مني سابقا، ولن تنجو مني في المرة القادمة، أيها اللعين، أتيت لتشمت بي. وهل تتصور أن السجن سيخلصك مني؟ أنت غبي إن ظننت ذلك، فأنا سأخرج وسأشرب من دمك حتى وإن عدت إلى بريطانيا. لن يحميك مني أحد.

بينما هو مستمر في صياحه، وتوجيه تهديداته لأبيه، وإذا بثلاثة مساجين انهالوا بالضرب على الابن الغاضب، غيث، المعتدي على أبيه، وما كان من الأب إلا أن صار يصرخ ويهدد الثلاثة وكأن الضرب قد ناله وألمه، وصار كأنه هو من يريد تحطيم حديد الشباك؛ ليعاقب الثلاثة الضاربين ابنه.

ألتفت أحد الثلاثة إلى زيد قائلا : نحن نضربه لأجلك أنت؛ فمن لا يحترم أباه نذل ولا يُحترم، وأنت تهاجمنا!

- اتركوه، ولا تتقربوا إليه. هو ابني، وأنا أبوه، فلا تتدخلوا بيننا. ولي معكم حساب على ما فعلتموه به. من طلب منكم أن تضربوه؟! لقد أوجعتم قلبي.

- والله لسنا وحدنا من ضربناه، فأغلب المساجين قد ضربوه خلال فترة سجنه؛ لما فعله من فعل شنيع.
- ما لكم وإياه! هو لم يعتدِ عليكم، لذلك أنتم لا تعتدوا عليه.
- يا حاج، دعنا نؤدبه. ووالله إني لأحسده عليك. والله إني لا أريد إزعاجك.
- ليتكم تعرفون معنى الأبوة، فالأب هو من صعق الحب قلبه، فمحا ذاته، فعلى صوته بالود، وشد حزمه لنفع أبنائه، واشتد عزمه لإسعادهم، مبتسما لهم متعاليا على جراحه، وباكيا عليهم ناسيا أفراحه، مظلا لهم من لسعة الشمس، واقيا لهم من قرصة البرد، مانعا لهم من السقوط، دافعا لهم للصمود، مشجعا لهم للصعود.
- يا حاج، إن ما أسمعه منك وأره يدفعني لشرب دم ذلك الولد العاق، ولكني لا أريد أن أوجع قلبك بتأديب ولدك.

يتألم أكثر على ابنه، وينكسر انكسارا واضحا يثير عطف أعدائه عليه. وغيث لا زال يهاجم أباه ويهدده وخصوصا بعد أن حماه رجال الشرطة من ضرب بعض المساجين. فشل زيد في إنقاذ ابنه، واصلاح

أمره، وكسب وده؛ وفشل في إراحة نفسه، ونجح في إثارة غضب ابنه، وفي هيجان ألمهما، والإكثار من حزنهما.

لا عون له إلا ميس التي يكثر إليها الشكوى، ويثقل عليها البلوى، وما هي إلا خير سند له، تزيل همه، وتطرد غمه، وتمسح حزنه، وتشحنه بالتفاؤل والأمل، مجسدة أطهر الحب، راسمة أجمل معاني الوفاء، مظهرة أروع الود. يرجع إليها كلما ضاقت عليه دنياه. وهي– كعادتها–تريح أعصابه من التعب، وتهدئه وتهاجم أحزانه، وتغلبها؛ لترفع راية النصر بابتسامته لها. أما أهل زيد وإخوته فإنهم يهربون منه؛ لحرصهم عليه من الصدمة التي قد تدمره في حال إخبارهم له، وكذلك في عدم إثارته، فهو حين يراهم يكثر الأسئلة عليهم، وبذلك فإنهم بين أمرين أما أن يخبروه أو لا يخبروه فيغضب. ولا يحبون أن يروه حزينا منهارا غاضبا.

بدأ زيد يتردد على ابنه، غيث في سجنه حاملا معه طعاما وأشياء له، مرة في الصباح وأخرى في المساء من كل يوم. وابنه يقابله بأن يرفض ما يجلبه له أبوه رفضا قاطعا قاسيا مهينا مكثرا له الكلام الجارح الفاضح، وتهديد ووعيد بكل وقاحة وعناد وعداء، ولكن حديد الشباك الفاصل بينهما يحميه من ابنه المتهجم عليه. مما أجبره على تقليل عدد مرات زيارته لابنه، ولم تقل ثورة غضب غيث على أبيه، ولم يتغير

رفضه له ولما يجلبه له معه، كأنه عدو متأصل، ديدنه الحقد، وطبيعته الكره، وهدفه الانتقام، لا عقل له، ولا عاطفة، ولا ضمير.

على الرغم من تعب زيد من زيارة ابنه الطاعن له في سجنه إلا أن غيث لم يتفاعل مع ود أبيه له، بل إنه لم يقلل من شتم ابيه ومهاجمته وتهديده، فما كان الحجر يعرف معنى العواطف والمشاعر وقيمة الأبوة والعلاقات الإنسانية. بل إن هناك اختلاف في التفكير، فزيد يتودد لابنه بهدف إنقاذه وإسعاده وتعويضه عما فاته؛ وغيث يرى أن تودد أبيه له؛ لأنه يخاف منه ومن هجومه القاسي الذي وجهه له حين طعنه. وهو يرى نفسه الثائر لنيل حقه وحق أمه وأختيه من أبيه الظالم لهم، وما تودد أبيه إلا دليل على خطأه الكبير اتجاهه واتجاه أمه وأختيه. ومن ناحية أخرى، إن غيثا يرمي كل مشكلاتهم المعنوية والمادية وفشلهم واخفاقهم على أبيه، ويريد أن يعاقب أباه انتقاما من كل من صدر منه اعتداء عليه، كأن زيد هو الذي حرض على ابنه وعلى ابنتيه وطليقته.

طال بقاؤه في السجن؛ لأن القاضي أجل الحكم في القضية مرة؛ ليتشافى المجني عليه (الأب) زيد، ومرة أخرى بناء على طلب أخوة زيد. ولكن بعد أن بانت الحقيقة لزيد، قام بالتنازل عنه، ووكل محاميا خاصا له للإفراج عنه. وتدخل أهل زيد وميس خفية عن زيد لتأخير غيث في

السجن لحين امتصاص غضبه؛ خوفا منهم على سلامة زيد من ابنه المهاجم المسعور؛ كونه يريد قتله.

إن أغلب الناس قد هاجموا الابن الطاعن لأبيه، وناله الضرب والأذى منهم؛ وقسم منهم قام بتوجيه النصائح له وخصوصا بعد أن عزلوه في غرفة سجن، وصار في أمان من ضربهم له. فكلموه، وكلمهم، قالوا له : ما قصتك مع أبيك؟

أجابهم بهدف تسلية نفسه، ومداواة جراحه، وتخفيف ألمه مصبرا نفسه، ومبررا لفعله العاق مع أبيه، ووجه مكفهر وعيناه محمرتان ونفسه غاضبة وجسمه متألم من ضرب المساجين له : أنا لا أريده، أكرهه، ولا أريد أن أراه.

- وإن كنتَ لا تريده، كيف استطعت طعنه! وهل أردت قتله؟
- نعم، أنا أريد قتله. لقد دمر حياتي وحياة أهلي. لقد نجا مني سابقا ولكني سأقتله فور خروجي من السجن.
- هو أبوك، ويتودد لك، ويأتيك زائرا وحاملا لك الطعام.
- لا أريد طعامه. بل أريد روحه. يجب أن يدفع ثمن ضياعنا.
- ضياعكم! كيف؟

- طلق أمي بعد أن أتعبها سنين، وسافر إلى بريطانيا منذ عشرين سنة، وتركنا خلفه دون أن يلتفت إلينا أو يشعر بنا لدرجة أنني لم أرَه ولم يراني قط. تركنا في مجتمع قاس.
- ولكن لماذا ترككم وهاجر؟
- تركنا؛ ليهاجر. سبب تركه لنا هجرته اللعينة. ويا ليته تركنا منذ البداية دون أذى وتعب، فقد أتعب أمي كثيرا وضغط عليها.
- لماذا لم تهاجروا معه؟
- لأنه يكرهنا ويريد التخلص منا؛ لينعم هو بحياته مع النساء الأجنبيات الساقطات مثله، ويتركنا نصارع آلام الحياة ومشاقها.
- كيف يكرهكم وأنتم عائلته! ثم أن ما يفعله لك أكثر مما يفعله جميع آباء المساجين كما رأينا ونرى الآن.
- هو يفعل ذلك؛ لأنه يخاف مني، فقد رأى عزيمتي وإصراري عليه. فصار يحاول التقرب إلي. وهو غبي؛ لأنني لن أسامحه أبدا، وسأشرب من دمه.
- لا أظن أن مثل هذا الرجل العاطفي المحب لك يستطيع ترك عائلته؛ لذلك فقد تكون أمك هي السبب في الطلاق وفي هجرته إلى بريطانيا.

- لا، أمي أفضل منه. وهي عوننا. وهو سبب البلاء وآلام والمصائب التي أصابتنا وأفجعتنا. لا أعرف لماذا كان سببا في مجيئنا لهذا الحياة وهو غير متحمل لمسؤوليتنا.
- يا أخي حتى وإن كان مخطأ بحقكم، فضروري أن تسامحوه وتغفروا له، فأنتم ترونه يريد أن يكفر عن خطأه، والله يأمرنا بأن لا نقول لهم أف. فسامحه واستغفر ربك.
- لن أسامحه. يجب أن أنتقم منه وأخذ حقي وحق أهلي منه حتى وإن أعدموني مرارا.

لم يتغير الولد أتجاه أبيه إلا في أنه أزداد يقينا بأن أباه مخطأ معهم، وخائف منه؛ كونه يتودد بعاطفة، ويكثر من المجيء، وينوع في جلب الطعام. لم ينفع غيثا كلُ تودد أبيه، ولا حزنه ولا انكساره ولا حرصه عليه، ولا الموعظة الحسنة، ولا ضرب بعضهم له، فعناده عناد بغل، وحقده حقد أمه وأخواله، وأسلوبه أسلوب أولاد الشوارع، ومجتمعه الذي يعيشه غابة وحوش، كله جاهلية، يتصارع من أجل كل شيء، والبقاء للأقوى، والاعتداء فيه مستمر، والهجوم على الضعيف دائم، والقوة مطلوبة، وكثرة العدد لازمة، والمال ضروري، والنفوذ أساسي، والتفاخر مهم، والتباهي نافع؛ الضعيف فيه مهان، والفقير ذليل، والمسكين مداس،

والمسالم مُعتدى عليه، والوحيد منكل به، والمنفرد مطية؛ يقبلون على من كان لهم فيه مطمع مغتنمين له مركعين مهينين، لا يرحمون أحدا، ولا يكفون آذاهم عنه.

في هذا المجتمع تركهم، وهاجر إلى بريطانيا. لم يرحمهم هذا المجتمع قط وخصوصا أن أمهم كان سليطة لسان كثيرة الخصام شديدة الولع بالمشكلات كأهلها؛ لذلك كان المجتمع ينفرهم، فكان الجميع يعيرونهم بأمهم المطلقة، ويعتدون عليهم. وأمتنع الناس عن تزويج غيثا كأن أتفق المجتمع أتفق على رفضهم. ولم تستطع زينة الحفاظ على حب زوجها لها بعد عانى ما عانى من منع ومعارضة له من قبل أهله حتى تزوجها، ثم جرفوه معهم إلى كرهها والموافقة على طلاقها، فطلقوا، ولم يعطوها حقوقها.

وحين رجع زيد من سجن ابنه إلى البيت وجد ميس تبكي بحزن، ووجها متغير، وحين رأته حاولت اخفاء حزنها وتصنها الابتسامة إلا أن طبيعتها النقية الناصعة البياض تفضحها أمامه فعرف أن هناك شيئا، وبعد الإلحاح عليها، أخبرته أنها تعرضت لهجوم طليقته العنيف الذي بأن أثره على جسمها. ثم عرف أن هذا الهجوم والتطاول والضرب والشتم على ميس ليس هو الأول، بل هو الرابع ولكنها كانت تخفي عليه؛ حرصا منها عليه. وهنا أدرك خطورة طليقته في تحريض أبنائه

عليه، وحصول عكس ما يريد ويشتهي، فقد تحصل مشكلة كبرى بوجوده، لا أن تُحل مشكلة الطلاق السابقة وخصوصا أن شباك سجن غيث لم يمنعه من ضربه لأبيه، فجسم زيد يوجعه من ضرباته المكررة بأشياء كالنعل والحجارة وقناني الماء وبعض الأواني وغيرها مما يمكنه رميه عليه من خلال فتحات باب السجن المشابه لشكل الشباك.

وبعد أن رأى زيد كل ذلك من ابنه، وعرف بتطاول طليقته، وسمع كلام الناس، ومناقشاته مع ميس وأهله، استسلم إلى اليأس من ابنه، وصالح الواقع، وآمن بالحقيقة، فترك مشاعره ورجع إلى عقله، فقرر الرجوع إلى بريطانيا، وفاجأ أهله بإعلانه عن زواجه من ميس، وأخذها معه، تاركا وراءه أبناءه، وقلبه معهم، ودمعه عليهم، وأمله فيهم. أفرح زيد أهله بزوجه الذي تأخر كثيرا والذي انتظروه كثيرا منذ عشرين عاما، يبدو تزوج؛ لأنه الآن شعر بأنه طلق زوجته وليس قبل هجرته إلى بريطانيا.

الفصل العاشر

ودع أهل زيد وأخوته زيدا وكلهم حزن على فراقه معتذرين منه على هروبهم من أمامه حين كان يبحث عن أبنائه، موضحين له السبب الذي هو أنهم لا يريدون أن يصدموه بالحقيقة لخوفهم على صحته. رجع زيد إلى بريطانيا حيث يسكن، هي عودة منه إلى ملجأ أمانه، وتبارك له جميع أصدقائه ومعارفه بزواجه من ميس. ورأى منها كل خير وحب وسعادة وأمن واستقرار، ألجأته للندم على ما فاته من العيش من دونها؛ وكان لها حبيب وزوج وأب وأخ وصديق، لم تشعر بالحزن معه إلا على

ما فاتها من دونه. عاشا سنتين معا وأشهر، عوضا بهما كل آلام حياتهما.

استطاع المحامي تخفيف الحكم على غيث، وإبعاد الأذى عنه، وإخراجه من السجن. فبارك له أهله على خروجه. وزاره أحد أصدقائهم مباركا له، ومخاطبا إياه : وإن كان في نفسي منك شيئا، وإن كنتَ قد خذلتني وجرحتني حين قلتَ لي إنك تريد مصالحة أبيك واستقباله في المطار وبعدها طعنته إلا أنني أبارك لك خروجك. وبنفس الوقت لك عندي أمانة.

- أمانة!
- نعم، لك عندي أمانة ثمينة، أريد تسليمها لك.
- ممن تلك الأمانة؟
- لا يهم ممن، ولكن المهم أن تستلمها، وتبرئ ذمتي منها.

فيأخذه معه؛ ليسلمه الأمانة، وهي هدية له من أبيه، وهي مفاتيح بيت في حي متوسط من أحياء محافظة البصرة (مسقط رأس أبيه)، ومفاتيح سيارة. يستلمها، وهو كاره لأبيه ولاعن وشاتم ومتوعد ومهدد، وغير مهتم له، كل ما همه هو أخذ البيت والسيارة. ومباشرة يسكن بذلك البيت مع أهله. ومباشرة يتزوج موظفة في إحدى الدوائر، في نفس السنة

2003. ويحضر أعمامه لفرح زواجه، وإذا به يطردهم أمام الناس في ليلة عرسه، وإذا بهم لا يردون عليه بعصبية ولا بحدة، بل انسحبوا بهدوء احتراما لأبيه وحبا له ووفاء.

وتبدأ المشكلات بين غيث وزوجته، وأولها مشكلتهما عن أفضلية الأهل، فكل منهما يقول للآخر أهلي أفضل من أهلك. ولكنها تُحل وتنتهي بتعقل الزوجة وتنازلها وخضوعها لغيث.

ثم مشكلة ثانية مع زوجة غيث تثيرها زينة التي لا زال مزاجها سيء جدا حتى بعد أن تزوجت، وزاد سوء بعد أن طُلقت، وغيرتها نار، ولسانها سليط واندفاعها للهجوم كأمهما. فصارت زوجة غيث يختنق منها وتكثر الشكوى لغيث قائلة : أختك تزعجني كثيرا، وأنا متضايقة منها كثيرا. فيحاول بعصبيته وتهوره تصحيح الموقف وإنهاء المشكلة، ولكن بعد يومين عادت نفس المشكلة، مما اضطر إلى ضرب أخته وشتم أمه. بعدها استقل مع زوجته عن أمه وأختيه، ويعيش منعزلا هو وزوجته.

بعد فترة قليلة، تحدث مشكلة بين الزوجة وبين أم غيث، يتدخل بها غيث ويتطاول بها على أمه، ثم يصل الموضوع لضربها. ولذلك تركت البيت وذهبت غاضبة إلى بيت أخيها. وإذا بابن أخيها يتشاجر مع غيث مشاجرة عنيفة، ثم يُضرب غيث ضربا موجعا من قبل أخواله. ولا أحد له

يرد اعتباره أمام الناس، فأعمامه لا يتدخلون به أبدا وخاصة بعد طرده لهم في ليلة عرسه.

وبعد فترة زمنية صار يُسمع منهم صياحا ومشادات كلامية، وكثر الضرب بينهم حتى صار يكثر ضرب أمه. وبعدها صار يطرد أمه من بيته، فتذهب إلى بيت أخيها، وتبقى أياما عنده، ثم تعود لوحدها.

نهاية 2004 رُزق غيث بمولود، وصار أباً لطفل جميل. ويثور حب الأبوة عنده، ويقدح عقله بشرارة ذكر لأبيه، ويطرق فكره شعور الأبوة، ويعرف معنى الحب النقي، والعاطفة الجموح التي كان يراها من أبيه حين كان يأتيه إلى سجنه، ويفهم سبب مجيئه حاملا له الطعام، إلا أن حقده عليه لا يجعله يسترسل بفكره وتفكيره بأبيه.

صارت أم غيث تمنع عنه المال، فلا تعطيه، وهو يعمل بأجور يومية، فقلت حيلته، وهذا ما أثار مشكلة بين غيث وزوجته. فزوجته موظفة، وهو كسول لا يعرف الجد في العمل، وليس له مهنة، وهو يعتمد على قوة عضلاته في آراءه وكل حياته، وعلى ما تعطيه إياه أمه من مصروف يومي. لم يشتغل في حياته قط، كان محبا للنوم، كثير السعال من كثرة تدخينه السيجار، جسمه لم يعرف البدانة، ووجهه يكره الابتسامة كأنه خُلق عابس كالح باسر مكفهر مبرطم، موسوم بوسمين دالين على جرحين أثرة ضربيتين تلقاهما؛ الأول على جبينه، والثاني

على خده، ولم تسلم أسنانه من أثر الضرب عليها. ولسانه لا يجيد لباقة الكلام ولطافته كعقله الذي لا يجيد التفكير، وأسلوبه خشن غليظ كله بداوة إن أُثير غضبه الذي لا يُعرف سببه، أما إذا رضي فأسلوبه أسلوب النساء كبعض كلماته. لم يتكامل منه إلا جسمه الذي نشطه بكثرة التمارين الرياضية التي مارسها، ويقويه حقده في حب انتقامه من الناس ومهاجمتهم كحبه للانتقام من أبيه.

كانت زوجة غيث تعاني من سوء خلقه وحدته طبعه وتعكر مزاجه وكثرة شكه وإصراره على مطالبه الخاطئة والمبالغ فيها والتي لا تتناسب مع زوجته وأهلها ووظيفتها، وازدادت معاناتها منه أكثر بعد أن قطعت أمه مصروفه عنه، وحولته إلى عالة على زوجته. فصارت تجزع من سلوكه وفقره وشكواه مما يشعر به، وكذلك من عدائية أمه لها.

لا رد له على رفضها له ومعناتها منه سوى ضربها وتعنيفها وأخذ مالها وتهديدها بالطلاق. لا رادع له سوى وجه ابنه حين يبتسم ويبكي الذي بدأ غيث التفاعل مع ابتسامته، والإثارة مع بكائه محاولا الحرص على حياة ابنه من مأسي الحياة وخصوصا مما عاشه غيث عاناه. تمرد عليه دموعه فنزلت جارية على خديه، وهو يتأمل عيش ابنه حياتها التي عاشها وعاناها من أمه وأبيه. عرفت زوجته أنه يتألم لألم ولده، ويحاول تأمين حياة مستقرة لابنه إلا أن هناك ما يدمر محاولته وهدفة، وواضح

ما يدمره الذي هو فقره وضيقه، وذكرياته الأليمة التي لم يستطع الخلاص منها والتحرر، ونقصه التربوي والنفسي، وحصار أمه عليه وعدائيتها له.

ولا يزال صراعهما المادي قائم، فكل منهما يريد أن يلقي مصاريف البيت على الآخر، فهو يقول لها : أنت موظفة، وتتركين البيت يوميا وترجعين بعد سبع ساعات، وأنا لم استفد منك في خدمتك لي، فيجب أن تساعديني أما أن تتركي الوظيفة أو أن تساعديني في مصاريف البيت؛ وهي تقول له : أنت رجل البيت، وكل المصاريف يتحملها الرجل لا الزوجة، فالرجال هم القوامون على النساء. هي حرب كلامية، تتحول إلى الأيدي.

زوجة غيث تعير زوجها وتسمعه كلمات مهينة جارحة قاسية، بعد أن رأت أخواله يضربونه ويهينونه، ولا أحد يدافع عنه، وبعد أن رأت خلو جيبه من المال، وهي التي كانت تظن أنه غني، فسيارته جديدة، وبيته جميل. ثم صارت تهدده بأهلها، قائلة : أنت لا سند لك، أما أنا فسندي أسود. وإن غضبت أكثر تعيره بأمه وطلاقها وخصوصا أنها موظفة وتعرف بعض زميلاتها، ومن خلالهن عرفت الكثير عن أم غيث وأبيه؛ وحين تكون راضية عنه، تتقرب له من خلال ذمها لأمه، أو حين تزعجها أم غيث. وفي كلتا الحالتين صارت زوجته مصدر معلوماته عن

ماضي أمه وأبيه. فقد عرف من خلالها أن أمه كانت سيئة الخلق مع أبيه، وقد حاول العيش معها لأجل أطفاله إلا أنها كانت تستغله وتهينه وتنكل به، وتعتدي على رجولته وتشهر به وتكثر انتقاده، وتهين قدره وتصغر منزلته، عجز عن احتوائها، وسودت له سمعته، ومنعت عنه رؤية أطفاله، وبالغت في إهانته. لم يحتمل كثرة اهاناتها وأهلها له، ولم يحتمل فراق أطفاله، فقرر الهجرة إلى بريطانيا آملا أن يشغل نفسه ويصبرها.

بدأ يبكي بصمت، ويحزن بداخله، ويتألم من أعماقه، وينهار بغضب حين تعيره أو حين تنظر له نظرة احتقار، فيتذكر أباه، ويبدأ بالتفكير بوضعه مع أمه، وبدأ الندم يدب إلى داخله على عدم التكلم مع أبيه حين كان يزوره في السجن. كأنه بدأ يشعر بما عاشه أبوه من آلام وأحزان ونكبات. ولم يفارقه مشهد أبيه وهو يدافع عنه من أولئك الرجال الثلاثة الذين ضربوه في السجن، إلى الآن تسبح في ذهنه صورة أبيه وهو يريد تحطيم حديد شباك السجن؛ ليدافع عنه، وهو يصرخ عليهم ويهددهم. ولكن هذه المرة نزلت دمعة من عينيه، فيها شعور بألم والده عليه. شعر باحتياجه لأبيه.

وذات يوم، مر غيث في شارع فرأى زوجته مع زميلتيها وزميل لهن، وهي مرتدية ملابس جميلة، ومكثرة من المكياج والعطور، تمشي قريبة

جدا من زميلهن كأنها تريد أن تلتصق به، مبادرة للكلام معه، مبتسمة غير مكترثة.

فسألها : أين كنت؟

- كنت مع زملائي نعزي أحد زملائنا.
- أي عزاء هذا وأنت متجملة متعطرة مبتسمة!
- أنا لم أتجمل ولا أتعطر لأجل أحد أو لأن عندي مشوار معين، ولكن لأن طبيعتي التجمل والتعطر والابتسامة. وهذا ليس بعار عليّ.
- ولماذا لم تخبريني حين خرجتِ؟
- أنا لم أخرج وحيدة، بل مع زملائي في الدائرة؛ لذلك لا حاجة لإخبارك.
- كيف لا حاجة لإخباري! وأين ما ترددينه علي الرجال قوامون على النساء! أم أن هذه القوامة فقط في دفع المال!
- أي مال هذا الذي تدفعه أنت! أنا من يدفع كل مصاريف البيت، أنت عالة علي وعلى المجتمع كله.
- كيف تشتميني، أيتها الوقحة التي تخرج متجملة من دائرتها دون علم زوجها!

- تتهمني بشرفي وأمك مطلقة وأختك مطلقة! ولكن الله أذاقك ذل الهوان، فلماذا طُلقت أمك وأختك! سلْ عن أمك التي لا تصادق إلا الرجال ولا تكلم غيرهم، ولا تبتسم إلا لهم. هي التي استعار منها أبوك، فطلقها، وهرب منها ومن مشكلاتها واحراجاتها وعارها إلى بريطانيا بعد أن قست عليه واعتدت.

يتحول الموقف إلى ساحة حرب، فيضربها ضربا مبرحا. وبعد قليل، يهجم أهل الزوجة على غيث وهو في بيته، ويضربونه، ويدمون رأسه وأنفه. تعقد الموقف أكثر، وإذا بأعمامه يتدخلون ناصرين معينين لغيث، اخذين بحقه، رادين له اعتباره، ولكن مع عدم الاتصال بغيث ولا تكليمه، ولا احضاره حتى.

كانت زوجة غيث تكثر من تعيير زوجها بأمه، وكان غيث يتذكر بعض الأشياء ويربطها بكلام زوجته وببعض أفعالها معه. فحين رأى زوجته كثيرة التجمل والتعطر والتقرب من زميلها مبادرة إياه بابتسامتها وكلامها، تذكر أن زميلا لأمه كان دائما معها، وهي دائما تتعطر وتتجمل وتخرج لعملها، وتذكر أنه كان معها ذات يوم في صغره ورأها تجالس الرجال وتمازحهم وتلاطفهم. ورأى منها عنادا لا يُطاق وهجوما لا يُحتمل حين صارت مشكلات بينه وزوجته وأمه.

ولم ينسَ قط سخرية بعض الطلاب الذين كانوا في مدرسته والذين يسألونه عن ذلك الرجال الذين تمازحهم أمه في كل مكان حتى حين تأتي معه إلى مدرسته، تمازح المعلم والمدير والحارس والشرطي وحتى بعض أولياء أمور التلاميذ. فكان غيث يشعر بالعار والنقص. وحين يخبر أمه بالأمر تغضب وتضربه ثم تهجم غاضبة على بعض أولياء أمور التلاميذ الذين عيروه بها، وكان في ذلك الوقت يشعر بالخجل من التلاميذ. وكان ذلك السبب الرئيس في تركه المدرسة.

ولم ينسَ مناقشته–بعد أن كبر–مع أمه حين كان يمنعها من الاقتراب من الرجال وممازحتهم على الرغم من أنه لم يبلغ بعد، كانت تجيبه أنهم زملائي وأنا أكلم الجميع. كلمة زميل مزعجة لغيث، وكأنها تعني له العار والسوء سواء سمعها من أمه أو من زوجته ومثلها كلمة صديق. ولم ينسَ قول أمه له : لا تكن مزعجا كأبيك الذي كان يضايقني. ولا تحرجني أمام زملائي. وكذلك لم ينسَ أن أمه تحل بعض مشكلاتهم في بعض الدوائر من خلال اتصالها ببعض الرجال الغرباء تليفونيا، وتطيل هذه الاتصال وتكثر فيه الضحك والمزاح والكلام الرقيق اللين.

على الرغم من حب غيث لابنه وتعلقه به، فقد أُجبر على أن يطلق زوجته، ويبتعد عن ابنه، وتقصم ظهره بإجراءات المحكمة وقوانينها الصارمة بالنسبة له والتي كان يجهلها كل الجهل. فقد أخذت منه حتى

البيت؛ لتسكن فيه ثلاث سنوات كحق من حقوق الزوجة على الزوج حين يطلقها، ومع ذلك هو يدفع نفقه شهرية مرهقة له؛ كونه لا عمل له، وأمه لا تساعده ماديا، بل تطالبه بالمساهمة معها في مصاريف البيت وإيجاره الذي استأجروه بعد أن أخذت زوجة غيث بيته منه بالقانون الذي ينص على أن للزوجة والأطفال حق السكن في بيت زوجها المطلق لها لمدة ثلاث سنوات، وصارت تحرمه من رؤية ابنه العزيز عليه والغالي، وصار ابنه يكرهه ولا يريده وكأنه لا يعرفه. وسمع الكثير من أقوال طليقته فيه من خلال بعض المعارف، واستغرب كثيرا مما سمعه، وتفاجأ كثيرا بكذب طليقته وافترائها عليه. فتنبه إلى كلام أمه بأبيه.

خلال كل هذه المشكلات، كان يتذكر أباه مرة حقدا، ومرة أخرى خوفا من الله فيما فعله، ومرة ثالثة شعرة ميل له لما عرفه عن الحياة الزوجية، وعن حقد أمه وقساوتها وصلافتها وذكوريتها وحقدها الذي رآه منها بأم عينه حين عادته وهاجمته.

في النهاية، أدرك أن أباه لم يخطأ معهم، عرف ما كان يجهله، وفهم أن الأطفال تكسر قلوب الآباء، ولكن الزوجات الطالحات يفرقن بينهم، وتأكد من أن الولد قلب لجسم أبيه ولكن سكاكين حقد الزوجة تقطع القلب من الجسم، وتبعده عنه، وتسوده صانعة منه سكينا حادة قاطعة؛

لتقطع به جسم أبيه. وجد نفسه في الطريق الخاطئ بعد أن قطع فيه مسافة طويلة وشاقة.

اختطفته الوحدة، ومرغته الذلة، وذبحه التفكير، ونال منه الهم، وأبكاه القهر، وأنبه الضمير، وأحرقه الحنين لابنه، وأرقه حاضره، وألمه ماضيه، وأغرقه مستقبله. لا حظ أن البياض قد وخط رأسه، وصار شارد الذهن، صامت الجوارح.

تفجر حبا وشوقا لعائلته كأنه يحن إلى الجنة، وتفجر حسرة ولوعة لفقده أهله أباه وأمه وأختيه وعائلته زوجته وابنه كأنه خسر دنياه وآخرته بعد أن أنحسم أمره وانقضى. وصار يشعر بظلم حاضره، وبسعادة ماضيه، وتغيرت نظرته، فصار عدوه صديقه، والمقرب إليه عدوه، فأبوه الذي كان ألد أعداءه صار في نظره صديقه، وأمه التي كانت أعز ناسه، صارت أقسى إنسانة عليه، حالها حال زوجته التي نكلته وأخذت منه ابنه وماله وبيته، وكحال أختيه اللتين انقلبتا عدوتينِ له، فيهما كل الحقد عليه والكره له. بدأ يتخيل أن أمه تحرض أختيه عليه كما كانت تحرضه على أبيه. كأنه صار يعيش حياة أبيه.

ألجات ضعف الوحدة وانعدام الناصر والمعين غيثا بالتخلي عن عضلاته، واللجوء إلى عقله، وساندها المجتمع الذي لا يرحمه إن وقع

منه خطأ، فأقرب الناس له أمه، ويتذكر حين ضربها، عاقبه أهلها أشد عقوبة، وكذلك زوجته.

فلجأ إلى عقله، واستعان بالتفكير على واقعه، وبدأ بالإكثار من مقارنة نفسه بأبيه، ومقارنة وضع أمه مع أبيه بوضع طليقته، وكلما قارن وجد أباه متألقا في دنيا الحب والود، ولامعا في سماء النبل والإنسانية. وبدأ يحلم بأبيه، ويتمنى عودته من جديد. ويسال نفسه ما الذي أجبر أبي على العودة إلينا بعد عشرين عاما؟ ولماذا أهداني بيتا وسيارة؟ وكيف استطاع المجيء إلينا وترك الحياة الجميلة والعيش الهانئ في بريطانيا وهو أستاذ ناجح مرغوب به؟ أ تزوج بعد أن طلق أمي أم لا؟ وغذا تزوج فاين أبنائه؟ وإذا لم يتزوج ما كان السبب؟

ذات يوم أسرع إلى بيت صديق أبيه الذي حمله الأمانة (البيت والسيارة)، طال الطريق القصير عليه فأسرع أكثر؛ ليصل إليه بسرعة؛ ليوصله لأبيه، فقد بدأ الشوق يتفجر، والحب يظهر، والحنين يزاد. وصل إليه وهو يرتجف مصفرا متلعثما، قائلا : أوصلني إلى أبي، يا عمي، أريد الاتصال به، والاطمئنان عليه، أريد الاعتذار منه، والسماح والمغفرة، أريد أن أجالسه وأكلمه، أريد أن أفرح به ويفرح بي. لقد كنت على خطأ حين أزعجته، لقد كنت شقيا حين أبكيته، وحين طعنته. هيا، يا عماه، أوصلني إليه.

وما كان من هذا الرجل إلا الاستغراب والدهشة، وهو يسأله ماذا جرى لك، يا بني! أ فعلا بدأت تحب أباك أم أنك تتصور أن عندي أمانة لك أو هدية أخرى أم أنك تظن أنه سيأتي إلى العراق مرة أخرة فتريد أن تعرف الزمان والمكان كي تطعنه مرة أخرى! والله لا توجد لك عندي أي أمانة أو هدية. فكف عما تقوله. واضح أنك تسخر مني ومن أبيك.

- يا عمي، والله أنا أتكلم بصدق.
- لا أعرف ماذا أقول لك. ولكني في عجلة من أمري، فكما ترى هؤلاء الرجال ينتظرونني، ويجب أن أذهب معهم الآن. مع السلامة.

فيسأل عن جدته، ويذهب إليها مباشرة، لأول مرة في حياته يدخل الشارع الذي ولد فيه أبوه، وعاش فيه؛ أول مرة يدخل إلى بيت جده، وبعد أن طرق الباب، فتحته له بنت، فقال لها إنه يريد جدته، وكلاهما لا يعرف الآخر وهما أولاد عم، فخرجت إليه الجدة باكية ومعها ميس والسواد يعلوها، وكأنها ليلة حالكة السواد ووجها القمر، يجري فيه نهران من دمع الحزن وألم الفراق ومرارة الفقد. يا جدتي، أنا أخطأت كثيرا مع أبي، وأريد أن أسلم عليه الآن، وأطلب العفو منه والسماح، يا جدتي، أريد أن أجلس معه وأكلمه.....

وإذا بصوت النحيب يعلو، ونعي الحنين يطغى، وصدق اللوعة يطفو، ومشاعر الألم والفزع تظهر، وأنهار الدموع تزداد. يرى غيث أن كل من حوله يرتدي السواد، ويبكي بحرقة وألم، لم يفهم المعنى ولم يدرك المقصود ولم يتصور الموقف. صار يلح على جدته في طلب والده، ويكثر مما يريد أن يفعله معه. وإذا بصوت متهدج شجي مشحون شحنات ألم وحزن يخترقه؛ ليسمعه ما لا يحب أن يسمعه، يا غيث، لماذا فعلت هكذا بأبيك؟ لماذا خسرت ذلك القلب الذي أحبك؟ لماذا طعنته فأسقطت منه قطرات أنت فيها تسبح؟ لماذا اعطيت للموت فرصة ليأخذه منك؟

غيث : ماذا! ماذا! الموت!

ميس : لقد صرت يتيما يا غيث، أيها الولد الشقي الغبي، الموت أخذ أباك، ولكن بقيت حسرة ولوعة في قلبه، احتضانه لك وتقربه لك. ماذا صنعت، أيها الشقي العاق!

فات الأوان، فقد كان الموت أسرع من غيث في الوصول إلى أبيه. هذه المرة فراق أبدي أقسى من ذلك الفراق الوقتي الذي ذبحتهما به أم غيث، وقطعت حبال وصلهما، وفرقت جمعهما، وباعدتهما عن بعضهما، ودمرت حياتهما العائلية، وعذبتهما بسوط عذاب الغربة، وألم الوحدة، ولوعة التحسر، وخسارة الحياة.

الفصل الحادي عشر

صار الحزن ظل غيث الذي لا يفارقه أينما يذهب، وصار الندم أنفاسه التي يتنفسها، والسواد لباسه الذي لا يغيره، يعيش في كآبة، يرهقه الألم، ويفزعه الحاضر ويبكيه، ويقتله الماضي ويشجيه.

عرف معاناة أبيه، وفهم صراعاته، وعذر تقصيره، وما عذر تقصير نفسه أتجاه أبيه، كأنه يريد هذه المرة طعن نفسه بأقسى من تلك الطعنات التي وجهها إلى أبيه؛ ندما على ما فعله مع أبيه.

صارت رؤيته لأمه تفجير ألمه وتحز قلبه وتثور غضبه، صار يراها هي سبب ضياعه في الدنيا وخسارته في الآخرة. كره أمه كل الكره، وصار لا يطيقها، ولا يريد أن يراها، وبدأ يندم على موضع سكينه ومكانه طعنته في جسم أبيه، وتمناها بقلب أمه وطليقته.

وحول سبب كل آلامه التي أصابته من أبيه إلى أمه، فهو يتصور لو أن أمه كانت على حسب ما يريد أبوه لما طلقها، ولما دفع الأبناء ثمن الحرمان والدمار؛ ولو أن أمه لم تغذيه الحقد والكره لما كره أباه وطعنه، وابتعد هو وأختاه عن أبيه وأعمامهم.

فقد تيقن أن انصياع الزوجة لزوجها واظهار أنوثتها يثير رجولته، ويفجر حبه لها وتمسكها فيها، وعطفه عليها ووده، فسلاح المرأة أنوثتها التي تقهر به أقوى الرجال وتأسر قلوبهم، وتحولهم إلى عبيد لها مطيعين، ومساجين في سجنها وإن كان مظلما قاسيا مهلكا. أما ذكورية الزوجة وعنادها ومجابهتها لزوجها ونديتها، يحيلها إلى عدوه الشرس الخطير المتحدي له الذي يجب أن يقهره حتى ولو كان على حساب خسارته المعنوية والمادية. وبالتالي سينهار البيت ويقع فوق رؤوس أبنائه

المساكين الذين سيعانون كل حياتهم من هذا الانهيار العائلي، وسيعاني منه أيضا أبناؤهم.

يهرب من بيتهم ومن فيه إلى بيت جدته ومن فيه، كأنه يحاول التقرب من أبيه من خلال جدته. تعرف على أهل أبيه وأولهم زوجة أبيه ميس، وبدأ يطيل البقاء عند جدته، وجدته انفجرت له حبا، وثارت له ودا، وبان تمسكها به، كلما تشمه تقول له فيك ريح ابني، ريح أبيك.

أما ميس فهي أيضا تتمسك به مقربة إياه لها، معبرة عن حبها لزوجها ووفائها من خلال ودها لابنه غيث، وطائعة لرغبات زوجها، فهي تفعل كل ما يريح زوجها حتى وإن كان غائبا عنها مدفونا بقبره، وحتى وإن كان على حساب راحتها وصحتها. هي تبره حتى بعد موته، وتسعى لسد فراغ أبنائه العاطفي وتعويضهم عن حنان الأم الحقيقية. شعر غيث بما فقده من حنان من أمه من خلال ميس، وبما فقد من أمن من خلال جدته وأعمامه.

سقط ود ميس على نفس غيث، فانعكس عليها ودا وحبا. فما أن يطرق الباب حتى تفتحه له مستقبلة له بكل ود وحب وأمومة صادقة ونفس راقية. استطاعت تهذيب سلوكه، وترقيق كلامه، ونبذ عصبيته، واستمالته لها، واحترامه لها؛ وهي مستمدة قوتها من زوجها المتوفى وأمه

التي معها، وبعد أن خدمها انكسار غيث وخيبته في أمه، وابتعاد زوجته عنه، وضياعه في دنياه، وخسارته في آخرته، وندامته على أبيه.

احتلت ميس نفس غيث، فصارت المعلم له والمرشد والناصح والموجه، والمهندسة المبدعة الماهرة المرممة لكل حطام نفسه، والمحدثة اللبقة له، والمعرفة له بأبيه وتاريخه وأخلاقه حتى محت صورة أبيه التي رسمتها في مخيلته أمه كما محت كل أحقاده وضغائنه على كل من عرفهم. وصار لها تلميذ مجتهد طائع محب مود متلهف متشوق لقولها. هي مفتاح نفسه، وقبلة قبوله ورضاه، هو كله حب لها وطاعة. فما أن مدحها ومجدها وعبر عن إعجابه بها، إلا وردته بقولها : أنا تلميذة أبيك، يا ولدي.

- أنت تلميذة أبي!
- نعم، يا ولدي، أنا تلميذة له، أنت لا تعرف والدك أي نوع من البشر هو. كله رقي ولطف وفيض مشاعر. لقد تكهرب به حبا كل من اقترب منه ودنى. أنت لا تعلم مدى حبه لك ولأختيك، لقد أمضى حياته بحسرة بعده عنكم. أنتم لم تفارقوا خياله، أنتم لستم أمام عينيه ولكنكم كل ما يرى. كان يتحسر على توصيلكم إلى مدراسكم كل صباح، وأنتم تلوحون له بأيديكم وداعا.

- لا تبكي، يا أمي.
- وأنت أيضا أوقف دموعك. أنا أحبكم كثيرا؛ لتعلق أبوكم بكم وكثرة كلامه عنكم.
- أنا أيضا أحبك، يا أمي ويا أبي.
- إن والدك لم يترككم إلا لمصلحتكم كي لا يحرمكم من الحنان والمودة المتبادلتين بينكم وبين أمكم بعد أن وصل معها إلى طريق مسدود، وبعد أن سايرها كثيرا على الرغم من كل تصرفاتها السيئة معه، والدمارات التي ألحقتها به نفسيا وماديا وصحيا.
- لا تتوقفي، يا أمي، أرجوك
- يا بني، كثيرا ما ردد على مسامعي حلم العودة لكم والحياة معكم وخاصة بعد أن كبرتم وفهمتم، ولما اكتمل حلمه، جاء دورك؛ لتقضي عليه وعلى حلمه الهادف لبناء مستقبل جميل لكم خطه بألوان زاهية وأحلام وردية. كفاك بكاء، أنا آسفة.

أوقف الحزن والبكاء ميس عن الكلام، ولم يتوقف بكاؤه، وبقي مطأطئ رأسه ودموعه تنهار من عينيه الحزينتين. وما أن تسكتهما الجدة حتى يعود ويسألهما عن والده من جديد. وصار يبيت بالقرب من جدته

وزوجة أبيه. كان يرغب بسماع الكثير عن والده. وبعد جلسات طويلة، وأحاديث معمقة، تزول عنه تلك الغشاوة المظلة له وشيئا فشيئا، يعرف ما كان خافيا عليه من أسرار تعمدت والدته اخفاءها عنه؛ ليرى الحياة الطبيعية، ويعرف عظمة والده على المستوى الإنساني والعلمي؛ لتكون تلك العظمة مثار فخره، ويزداد أعجابه بأبيه وزهوه. حتى انتهى به الأمر إلى ترك أمه والعيش مع جدته وزوجة أبيه، وبعدها لحقته أخته الصغرى هند.

ومن خلال ميس، يعرف أن أباه قد مات بجلطة دماغية حزنا عليه حين أخبروه بأن أهل زوجة غيث قد هجموا عليه، وضربوه، وأمر أخوته بأخذ ثأره، ورد اعتباره؛ ولذلك تدخل أهل أبي غيث، وردوا اعتبار غيث له. وإنه قد مات مباشرة بعد أن أمر أهله وأخوته بمساندة ابنه غيث. لم يمت بطعنات سكين ولده الثائر عليه والمهاجم له، يبدو أنه لم يشعر بتلك الطعنات، أو أنه لم يحسب تلك الطعنات هجوما عليه واعتداء، فما مات بها؛ ولكن خبر الاعتداء على ابنه وضياع زوجته وابنه، قتله فور وصوله إليه.

وتخبر ميس غيثا عن ألم والده وحسرته على غيث عن عقوبة من يعتدي على الأبوة، فقد كان يعرفها بقوله هي الأبوة التي يجهلها الأغبياء، ويعرض عنها السفهاء، ويتعالى عليها الاشقياء. هي ذلك

القانوني الذي لا يرحم من تعدى عليه أبدا مهما كان ومهما كانت قوة المعتدي ونفوذه، فقوتها مستمدة من مقدار ذلك الحب العظيم للابن، ومؤيدة بقوة جبار السماوات والأرض.

على الرغم من حرص ميس على مشاعر غيث، وعدم مضايقتها له باللوم أو ما يمكن أن يفهمه لوما على فعله مع أبيه، إلا أن ميس فقدت السيطرة على أعصابها؛ لتخبره عما في داخلها من انفجارات نفسية، وصراعات قاتلة، فتسرد له حالها بعد وفاة أبيه : لقد كانت ليله باردة من ليالي لندن، والرياح تعصف بشده، وتهز معها أغصان الأشجار وتأرجحها عازفة موسيقى الحزن في الشوارع الخالية إلا من بعض المارة الذين خرجوا لجلب حاجاتهم الضرورية. شعرتُ أن الطبيعة تشاركني حزني فعواصفها تشبه ما يعصف بقلبي من أحزان كانت بمطرها المنهمر تشاركني الدموع على فقد زوجي، وأعز ناسي، ومصدر سعادتي، ومستقر روحي.

بقيتُ ساعات أتأمل ذلك البيت الذي أصبح خاليا من وجوده كخلو قلبي من ذاك الحبيب الذي كان يملأه بكل المشاعر. تأوهت وبكيت حزينة وحيدة في بيت كان بالأمس مملوء بكل المشاعر التي طالما انتظرتها، ودعوت الله كثيرا كي يحققها لي ويعوضني عن ذلك الحرمات الذي عشته مع أبنائي وبعد زواجهم وتركهم لي.

ويلي عليه، وآه من عمر أقضيه من دونه. عدت أجول بنظري في البيت فالمكان يعبق بالذكريات ولكن لم تعد لي رغبة بالبقاء فكل ما فيه يؤلمني، كأنها لم تكن سنتين وبعض أشهر قضيناها أنا وأبوك معا، كأنها عمر كامل ودهر طويل.

أصبحت لندن مدينة غريبة عني، بعد أن كانت جنتي مع زوجي على الرغم من أني عشت بها أجمل أيام عمري، وأمضينا معا أجمل الأوقات، أترك ذاك البيت الذي شهد لحظات فرحنا وسعادتنا وعدتُ إلى مسقط رأس زوجي حيث ولد وعاش فترة من حياته كأنني أريد أن أتخيل نفسي أنني كنت معه حين كان، كأنني أريد أن أكون بارة له مخلصة، كأنني أريد أن أنحني لأمه؛ اجلالا له واكراما، كأنني أبحث عمن يشبهه. بدأت أجمع أغراضي الشخصية. لقد اقترب موعد إقلاع الطائرة، حزمت حقائبي بسرعة، ونزلت إلى الشارع، واستعجلت إلى سيارة الأجرة كي أصل إلى المطار بسرعة، حاملة بقلبي كل أحزاني.

خلال ساعات الطيران كنت طوال الوقت أفكر كيف سأعود إلى مدينة لا أعرفها، ولا أعرف إلا القليل من أهلها. تملكني شعور بالخوف والألم وحدثتُ نفسي طويلا وتساءلت كيف سيعاملونني؟ وهل سيتقبلون وجودي بينهم؟ وفي المطار، وعند وصولي كان أخو زوجي في انتظاري. سلم عليّ بحرارة ورحب بي كل الترحيب، ودعاني إلى سيارته،

وقال : إنه سيوصلني الى بيت زوجي الذي كان قد بناه؛ ليعيش به أواخر أيامه مع أمه وأبنائه. لم يتوقف عن توجيه الأسئلة إلي عن أخيه، ولم أتوقف عن مدحه، ولم نتوقف عن البكاء، وكلانا مشدود للأخر، فهو يراني حبيبة أخية، وأنا أراه أخ حبيبي.

أوقف سيارته عند باب أحد البيوت قائلا : تفضلي، يا أختي، وحبيبة أخي، هذا بيتك، وهذه والدتي تنتظرك عند الباب، استقبلتني الوالدة بالدموع معانقة إياي بلهفة وحرارة وحب وود. وادخلتني البيت، وما زالت تنهض لعناقي مرات ومرات؛ لتشم رائحة ابنها بعناقي، وشوقها له وحزنها لفراقه مصغية لإجاباتي عن أسئلتها عنه، وكان يبدو عليها الارتياح عندما اخبرتها بالسعادة التي عاشها معي، تمتزج دموع حزنها على ابنها بابتسامة فرحها بسعادته. لم تستطع تركي لارتاح من السفر، ولم أستطع السماح لها بالانصراف عني وتركي وحيدة، فكلانا تحتاج الأخرى؛ لنواسي بعضنا، فمصابنا واحد، لقد وحدنا حبه، وجمعنا فراقه. كانت بحاجة إلي كحاجتي إليها، فكلانا ترى صورة زيد في الاخرى، وكلانا تقدر الأخرى وتجلها؛ حبا به. صارت لي أم حنونة، وصرت لها ابنة مطيعة.

وتتطور العلاقات بينه وبين جدته وميس، فهو يرى فيهما والده، ويتقرب له من خلالهما، وكلتاهما تشده للحياة وتريح نفسه، وهو يشم

فيهما ريح والده. يعانقهما ويقبل أيديهما، ولا يأكل إلا معهما، وهو رجل البيت. وميس كلها قوة مع غيث ومع أهل زوجها لحب زوجها لها ووصيته بها، ولقربها من الجدة. فتأمرهم أن يرتبوا سكنا لغيث؛ ليستقر به ويستكن، وتؤثثه له، وبعدها تزوجه من إحدى بنات أعمامه؛ لتحوله إلى سعادة تمشي على الأرض. بعد أن وجهته نحو إكمال دراسته، وما كان منه إلا الأخذ بما وجهته به.

رتبت وضع هند، وزوجتها من ابن عمها؛ لتجعلها بسمة رائعة نقية جميلة. وبعد فترة تنجح ميس في جذب البنت الثانية زينة، وفي تزويجها من ابن عمها. وكان سبب زواج كلتا البنتين زينة وهند من أبناء العمومة هو حبهم لأبيهما، زيد. وبذلك تنزل الرحمة والفرح على روح زيد. وبذلك تبقى أم غيث وحيدة تحت رحمة أولاد أخيها الذين تسكن عندهم. عدلت ميس ميل أم غيث في توجيه أبناء زيد، وعيشهم الكريم واستقرارهم السعيد، واعادتهم إلى مسار الإنسانية وطبيعتها الفطرية، وعلاج ما مرضوا به خلال فترة تواجدهم مع أمهم أم غيث كما فعل زيد مع الأطباء الثلاثة على الرغم من قصر الفترة التي قضاها معهم. والذين لم ينسوا زيدا، ولم يهملوا ابناءه. فقد زاروهم مرارا، وقدموا لهم الكثير من الهدايا في مناسبات مختلفة. وتمتنت علاقاتهم، ومدوا أيديهم لمساعدة غيث وأختيه. ركزت ودادا على زينة مشرفة على دراستها التمريض،

وركزت ميس والطبيب عماد على تعلم غيث وهند اللغة الإنجليزية، لتتوجه هند إلى أن تكون مدرسة لغة إنجليزية، وغيث ليكون مهندسا. جردتهم ميس من الحقد، وطهرت نفوسهم، وفتحتهم على الناس، وغذتهم حب الناس، والتمسك بالدين، واشبعت نفوسهم، ووضعتهم على سكة الحياة والسعادة والفوز بالآخرة. وهم برهنوا على أن الأم هي الدافع لبنائها نحو حياة كريمة سعيدة، ونجاحات كبيرة باهرة. وها قد تغيرت أحوالهم بتغير أمهم.

ومرت سنون، فرحوا برزق الله لهم، مولود لغيث في نهاية سنة 2008؛ ليملئ عليهم الدنيا فرحا وسعادة. وبعدها حزنوا لفقدهم الجدة الحنونة. ثم تكبر فرحتهم بعائلة غيث التي كبرت، فقد صار له ثلاثة أولاد وبنتين، وزينة صارت ام لولدين وبنت، وهند أم لبنتين. حتى يقطع الموت عليهم فرحتهم، فيخطف منهم ميس؛ لجعل بيتهم بيت حزن.

وتمر السنون، وإذا بابن غيث، نائل، من زوجته الأولى المطلقة الذي صار صبيا يهاجم أباه بمسدس غدرا من الخلف على غير توقع؛ ليوقعه أرضا ملطخا بدمه بين الحياة والموت. لم يخبر أعمام غيث الشرطة عن الحاثة ضد نائل، بل فالوا الرامي لغيث مجهول لا نعرفه.

أدخلوه نفس المستشفى الذي أدخل أباه إليه بعد أن طعنه، وهو يردد : ألهي سبحانك ما أعدل حكمك. لقد كنت من الظالمين. ورجع بذاكرته

إلى الوراء؛ ليتذكر عودة أبيه من بريطانيا، متعرفا على معاناة أبيه، وصراعاته الداخلية، وآلمه النفسية، وجراحاته الجسدية. ما إن فتح عينيه حتى خُيل إليه اللوم والشماتة في وجوة الناس وإن كانوا باكين حزينين عليه، والنظر إليه كمهمل لتربية أبنائه، وخُيل إليه وسمة العار على جبينه حين طعن أباه في الماضي؛ وما إن نام حتى تحلم بأحلام عودة أبيه وكوابيس الطعنة وعودة آثار الطعنة على أبنائه، ومستقبلهم الأسود، وعار فعلهم الشنيع، وخسارتهم لحياتهم العائلية. تمنى لو أن لابنه الطاعن (نائل) ميس كميس زوجة أبيه؛ لترجعه إلى مساره الصحيح وتضعه على جادة الإنسانية. فقد ألمه أن يعيش ابنه نائل ويتعلم من أم كأم غيث. كأنه يراها تغذيه الحقد والكره كما ربته أمه قبل ان ينتقل إلى العيش مع ميس.

عاش هذه الأيام الثلاثة، وهو في حالة سكر عن الناس، يتخيل أباه، ويتذكره، ويرجع إلى طعناته، ويبكي ألم أبيه حسرته ولوعته وانكساره وخيبته وخسارته، ويردد في نفسه : ما أقسى طعن الولد لأبيه، وما أقسى فقد الإنسان لعائلته. ويتذكر تحريض أمه له وعكس أحقادها عليه، وهذا ما دفعه إلى طعن أبيه. وتذكر حرمانه من جو العائلة الآمن، وحرمان أمه وأختيه وكذلك حرمان ابنه غيث ابيه. وآمن بضياع من لا أهل له، ودمار من خسر جو العائلة. ويتذكر حسده لكل من لم يخسر جو

العائلة، ويتحسر على نفسه وعلى أبيه وعلى أبنائه. يريد أن يصرخ موصيا الناس بأن يتمسكوا بعوائلهم، ويكثروا الشكر لله على نعمة العائلة. ولم ينسَ رسالة والده له التي أوصلتها له ميس، صار يرددها، ويتمعن بها كثيرا، وقد فهمها الآن وأدرك مضامينها للتو. فقد نقلت له ميس رسالة من والده، تقول : اهتم بأختيك، يا بُني، فأنت نائب عني، وأخ لهن وأب وصديق. يا بني العزيز، إني أحبك، وأرجوك أعذرني، لم أرمك، ولم تكن علي رخيصا يوما ما، ولكن العواصف الهوجاء تكسر الأشياء، وتقتلعها وتباعدها عن بعضها. لقد فرق بيننا غباء أمك، وقطعت ارتباطنا سكين حقدها.

لا تنس أن الولد هو العكاز الذي يتكئ عليه الوالدان إذا ارتعشت أيديهما من الكبر، وغناهما إذا حاصرهما الفقر، وشفاؤهما إذا ضايقهما المرض، وجنتهما في حياتهما، ورصيدهما في دنياهما وآخرتهما. بفرحه يُزال حزن الوالدين، وبحزنه يُزال فرح الوالدين.

صار غيث يكثر من الدعاء لله، متوسلا بأن يمته، ولا يجعله يعيش بعد ذلك، كأنه عجز عن إكمال مسيرة الحياة؛ فشلا، أو خجلا من أبنائه، أو انكسار من داخله، أو خسارة له، أو عقوبة له، أو لهفة للقاء أبيه لحبه له ولحرصه على طلب السماح منه والعفو عنه، والعيش معه؛ ليضمه تحت جناحيه، ويعوضه ما فاته من حرمان لعائلته بعيدا عن

حقد أمه الأسود وتحريضها الفاسد، وهروبا من واقعه المرير، وأناسه الأشرار.

بينما هو سكران بتفكيره وذكرياته بلا حركة كأنه مغمى عليه، في عالم آخر مع حسرته على عودة أبيه وطعناته له، فحزنه على أبيه يقتله، وندمه على فعله بابيه يذبحه، كأنه يطلب العلاج مما فعله بأبيه حين عودته إليه، وليس من تلك الجراحات النازفة التي تلقاها من غدر ابنه من طليقته؛ وإذا به يسمع أن الشرطة ألقت القبض على ابنه لقتله ابنه الآخر، نائل الذي غدر به. فيتحول هذا الخبر إلى ملك الموت الذي ينتزع روح غيث انتزاعا؛ ليودع الحياة حزينا كئيبا باكيا نادما.